

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربي من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والقانдал والقوط، ومنها الآسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضربون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعا لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيما أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا في الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا في موطنهم بالأندلس، وإنما في روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع في تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبريرة من القندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العنف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا في البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها في الفصل الماضى وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل في مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذي لا تطيب حياة أى شعب بدونها بل إنها تصبح نُكْراً وشراً خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتِبَ للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السمع في معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية في عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَعَ عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغیضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جُور القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقاً قبيحاً، التى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حيف، والذى يسوى بين الناس فى مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سبباً قوياً فى أن يعتنق كثيرون من مسيحيي الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثُلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة فى الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة فى دنياه وآخرته، وأيضاً لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهياً ذلك سريعاً فى الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة فى الإسلام وكانوا يسمون المسألة، وُسْمِيَّ أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث فى تاريخ العرب بالأندلس أن أكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين فى قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك فى وثيقة يُشْهَد عليها شاهدين، قائلاً فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمناً، غير فارٍّ من شىء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكراً له نعمته على هدايته له»^(١).

وطبيعى أن يُقْبَلَ من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعَدُّ جزءاً لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطراً كبيراً من أهل الأندلس تعربوا تعرباً كاملاً: دينا ولغة،

(١) كتاب الوثائق والجلات لابن العطار (طبع

مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقي وراءهم شطر ظل على مسيحيتهم، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانسية لغةً في مخاطبه اليومى، غير أنه شعر سريعاً بما ذكرناه آنفاً من أنها لغة مجذبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبي كتراث العربية، وأيضاً ليس لها مثلها تراث ثقافي ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلاً عما لأهل العربية في البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائماً يحاول أن يحاكي الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيي الأندلس ويهودها ثقافياً وأدبياً وحضارياً لا قرناً ولا قرنين بل قروناً متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بـتراث الإسلام قائلاً: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبأه وبرشلونة كانوا يقصدون إليها كلما مستهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»^(١). ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشالية إلى مؤسسات^(٢) ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤم طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلاً عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباساً عربية إلى مدنه وبلداته، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضاً بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقراً شديداً، بحيث لا نستطيع أن نجد مبرراً كافياً لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته^(٣) الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

ص ٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.
(٢) راجع هذه النظرية فى بالنتيا ص ١٤٢ وما بعدها.
عصر الدول والإمارات (الأندلس)

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٧.
(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنتيا

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانشية ، ويقول : إن هذا الازدواج في اللغة كان الأصل في نشوء طراز شعرى مختلط تفتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفي رأينا أن ريبيرا بالغ في كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملالة والسامة^(١). وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك في الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى في مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشنى - لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار^(٢). وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم^(٣). وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب في لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، ويمكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأمين أعجميتين، فتلفظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا في حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكلها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة في قضاياهم عن حسن فقه بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب في قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. ومما يدل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص ٩٦. (٢) الخشنى ص ٨٤.

(٣) الخشنى ص ١١٨.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التي دخلت في الإسلام، وهو شيء طبيعي أن يظل اللقب اللاتيني القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لُقِبَ زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي الشاعر بلقب النذل كما في المقتبس لابن حيان^(١)، وفي التكملة لابن الأبار أنه لُقِبَ بالقلملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أي النذل^(٢)، وكأما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قدر الثياب دائما، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلقاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لقذارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المرواني شاعر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع يُنَبِّزُ بلقب البُلَيْنه^(٣) Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا التنبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب في قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح في دلالة على التنبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذة دليلا على شيوع اللاتينية الدارجة في تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن في أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بليّ بالأندلس، إذ قال: «دارهم في الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (في القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»^(٤). ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بليّ وحدها في الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب في لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بليّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما في نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

(٣) راجع المغرب ١/١١١.

(٤) المغرب ١/١٩٧.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع)

دار المعارف ص ٤٤٣.

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت)

ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع في

ذلك تعليق د. مكى في المقتبس ص ٥٠٤

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع في كتابه معجم البلدان عن أهل شِلْبَ إذ يقول: «قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مرت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»^(١). ويقول ابن الخطيب في الإحاطة^(٢) إن أهل غرناطة - في زمنه بالقرن الثامن الهجرى - ألسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها إعراب كثير . وفى الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ : « مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس » ويقول : « إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة »^(٣) . وكأنما ظل يعيش فى الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة ، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيراً منهم - هناك زابت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة فى مخاطبتهم اليومى ، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب ؟!

وبما يدل على خطأ نظرية رييرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة ألبرو القرطبى المشهورة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م وفيها يأسى لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالناس يولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وأثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها، ويصرّحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجيالا»^(٤).

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) الإحاطة (الطبعة الأولى) ١ / ١٣٥.

(٣) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ص ١٠٦ .

(٤) راجع نص هذه الصيحة فى البتية ص ٤٨٥

وما بعدها .

وَأَلْبَرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصرارى فى الأندلس لزمناه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا همى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشارع والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئین متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالثبوت تلك الصيحة لأَلْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسٍّ يسمّى بِنَجْنِسِيْس، والكتاب مُهْدَى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفرق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالثبوت أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصرارى الإِسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلفها لنا مستعربو طليطلة»^(١).

ويشهد لبالثبوت وأَلْبَرُو أن نجد بين الإِسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عُنُوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أتينان الذى مر ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن. وإذا كان أَلْبَرُو يشهد بتعرب الإِسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرّبت - فى ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها وشأحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغيلة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولعاصرها حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أدبيا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتباً عند بنى هود قبله، وعين

(١) انظر بالثبوت ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسَدَاى كَاتِبَا فِي دَوَاوِينِهِ. وَمَنْ تَرْجَمَ لَهُم ابْنُ سَعِيدَ بَيْنَ شَعْرَاءِ الْمَائَةِ السَّادِسَةِ إِلْيَاسَ بْنِ صَدُودِ الطَّبِيبِ وَإِسْحَاقَ بْنَ شَمْعُونٍ وَكَانَ يُحَسِّنُ الْغَنَاءَ وَالضَّرْبَ عَلَى الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ. وَتَرْجَمَ ابْنُ سَعِيدَ لِشَاعِرِ يَهُودِي طَلِيظِلَى مُسْتَعَرِبٍ هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْفَخَّارِ رَسُولُ الْفُونَسِ إِلَى الْأُتَمَّةِ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ. وَتَرْجَمَ ابْنُ سَعِيدَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ أَيْضًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ سَهْلٍ الْإِسْرَائِيلِي الْإِشْبِيلِي الَّذِي آثَرَ الْإِسْلَامَ دِينًا وَعَقِيدَةً، وَكَانَ شَاعِرًا نَابِهًا وَوَشَاحًا مَجِيدًا. وَمَا يَدُلُّ عَلَى اتِّسَاعِ التَّعَرُّبِ بَيْنَ يَهُودِ الْأَنْدَلُسِ أَنَّ نَجْدَ بَيْنَ نِسَائِهِمْ شَاعِرَاتٍ مَجِيدَاتٍ مِثْلَ قَسْمُونَةَ بِنْتِ إِسْمَاعِيلَ الْيَهُودِي وَكَانَ أَبُوهَا - كَمَا يَقُولُ الْمُقَرَّى - شَاعِرًا وَاعْتَنَى بِتَأْدِيئِهَا، وَكَانَتْ تَطَارِحُهُ الشَّعْرَ، وَكَانَ رَجَا يُنْظَمُ قِسْمًا مِنْ مَوْشَحَةٍ، فَأَتَمَّتْهَا هِيَ بِقِسْمٍ آخَرَ. وَمَا يُؤَكِّدُ أَنَّ الْكَثْرَةَ مِنْ يَهُودِ الْأَنْدَلُسِ تَعَرَّبَتْ تَعَرُّبًا كَامِلًا أَنَّهُ حِينَ أَخَذَ الْإِسْبَانُ وَالْغُرَبِيُّونَ يُطْلَبُونَ تَرْجُمَةَ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْإِسْبَانِيَّةِ الدَّارِجَةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ كَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ دَوْرٌ ضَخْمٌ، سَوَى مَا تَمَثَّلُوهُ مِنْ تِلْكَ الثَّقَافَةِ فِي لَفْتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى لِيَقُولَ بِالنُّثْيَا: «نَبَعَتْ ثَقَافَةُ يَهُودِ إِسْبَانِيَا مِنْ مَوَارِدِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بِصِفَةِ مُبَاشَرَةٍ»^(١).

ولعل في ذلك كله ما ينقض - بوضوح - نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن في ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التي قدمناها. وأيضًا فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإِسْبَانِ في الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون في تخاطبهم اليومي العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونًا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبي في الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت في نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى في جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها في الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية في نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضًا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تترأى فيها أحيانًا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهي ليست عامية لاتينية، إنما هي عامية عربية، شأنها شأن العاميات التي نشأت في جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود في ترجمة الثقافة الأندلسية عند النشأ ص ٤٨٨ و ٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها في كل بلد عربي بعض خصائص تلك اللغات في النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث في الأندلس على نحو ما يتضح في أزجالها، فهي منظومة عربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانشية التي كانت مستقرة في الأندلس قبل الفتح العربي وظلت حية فيما وراءها من الإمارات المسيحية في الشمال، وبالمثل في الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجواري الإسبانيات والمسترقين من الإسبان في الحروب، وانزلت منها بعض ألفاظ في الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أو منظوم باللهجة الرومانشية الدارجة في الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أو يلمون بشيء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة في الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربي، على نحو ما يلقانا عند أبي عبد الله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجري، إذ ذكر صفى الدين الحلبي في كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وقد سُمي أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنان من وزن الرمل، وأخريان من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلّع البسيط، وأتشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية^(١). ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربي كما سيتضح - فيما بعد - في تعليقنا على ما نشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب في ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس في مخاطبتهم اليومي بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى في ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم أَلْبَرُو أَنْفًا. والشعب الأندلسي - في هذا الصنيع - يلتقى

المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

(١) راجع كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلبي بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة

بجميع الشعوب الإسلامية في البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعاً تتمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفي الوقت نفسه تحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها في ذلك مثل العامة من حولها، وهي لغة أهل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التي كانت سائدة في تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطاناً جديدة لهم. وكما أن العامة يختلف البلدان العربية بدلت في بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة في حركاتها وانزلت من كلماتها السوقية والعامية بعض ألفاظ إلى كتابات الكتاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين في المشرق يؤلف كتباً في لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائي البغدادي المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألف الزبيدي القرطبي الذي مر ذكره بين اللغويين الأندلسيين في القرن الرابع الهجري كتاباً في لحن العوام حتى ينبه الكتاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحياناً في كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبينوه ويجتنبوه^(١).

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية في الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانية، كما ظن ريبيرا، وهي عامية كانت تحمل الإعراب وتفسد أحياناً النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التي نشأت في البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدي كتباً، ونظم فيها زجالون أزجالاً كثيرة، وأحياناً دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربي أندلسي عامي ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافي وأدبي وعلمي وفلسفي، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا في الأندلس شعباً عربياً كبيراً ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربى اللغة فصيحاً وعاميةً، وظل عربى الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعياً أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدوداً زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار في تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر في عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعُونَةُ الكلابي كان مدّاحاً للصَّمِيل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهري وإلى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعاراً لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضي. ويظل الرواة ينشدون أشعاراً لأمرء البيت الأموي. وقد أخذ هذا البيت القرشي في رعاية الشعر منذ أول ولايته في الأندلس، ويذكرون من الشعراء في عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المرواني الداخل إلى الأندلس في صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المرواني وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء في عهد الأمير هشام أبو المخشّي عاصم بن زيد المتوفى في دولة ابنه الحكم الربضي، واشتهر لزمن الحكم غريب بن عبد الله التقي الطليطلي المتوفى في أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وعهده يُعدّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضاري والثقافي بالأندلس، وأيضاً بدء الازدهار الأدبي، وحظي بنزول زرياب في قرطبة لأول حكمه، ودفعه لنهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهورهم عباس بن ناصح قاضي الحكم الربضي على شذونة والجزيرة، ومرّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجّه به إلى العراق في التماس الكتب القديمة التي تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزاً كثيرة أكبّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم في إساعة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضاً في هذا العهد يحيى الغزال الذي بدأ ظهوره في عهد الحكم الربضي وعاش طويلاً حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم في عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشعر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديه وعثمان بن المثنى مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلها أبو عثمان سعيد بن الفرّج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس في زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة في الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار في المغرب والمقتبس. ومن تدور أسماؤهم من الشعراء في المقتبس لعهد الأمير محمد طاهر بن حزم وتام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المورورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم في المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حليتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحها له حتى وفاتها لعهد، وعِدَاد ابن عبد ربه في بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس في بيوتات المولدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبّب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيدس بن محمود، وكان كاتباً في القصر وله مدائح كثيرة في الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه النائر بجيآن فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله النائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلفاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح في الأمير عبد الله وأيضاً في كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا في الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله في ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة البيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته ويهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى والى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولّد من أبناء المسالة هو العجلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا في عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذي امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حلبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوا في تقيظه وتوسعوا في ذكر عدالته وساحه كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيد^(١) مقدّمهم معلّمه في الصبا ابن عبد ربّه ، ويليّه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادي وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السّناط وغيرهم من كبار الطّائرين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادي ومحمد بن الحسين الطّنبّي الإفريقي^(٢). ويذكر ابن حيان في الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهثثونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربّه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفي ومحمد بن أضحى صاحب الحامّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازي الذي مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون في عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفي مقدمتهم جعفر المصحفي مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطّنبّي ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجيّاني صاحب كتاب الحقائق. وكان الحكم مثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيهما محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور بن أبي عامر ثم ابنه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقضى فيها على الحكم الأموي قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء في الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوايع والزوايع المشهور بجودة نثره وشعره، والبليني سعيد بن عثمان المرواني وهو من مداح المنصور بن أبي عامر، والقائد يعلى بن أحمد بن يعلى وعبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهشيمي وعبد الله بن أبي الحسن

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الاسباني العربي للثقافة بدير) ص ٤٠ وما بعدها.

(١) الخناذيد جمع خنذيد، وهو من الشعراء: المجيد الحسن.

ومحمد بن شَخِيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادي المتوفى سنة ٤١٣
ومحمد بن الحسين الطُّبِّي وجعفر بن أبي علي القالي، وعيسى بن الحسن، وعُباد بن ماء
السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتَّاني محمد بن الحسن المذحجي المطبِّب وابن دراج
القسطلي وأمية^(١) بن غالب الموروري.

ومما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد
كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجري، على
نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء
بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التي تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعرض
أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكتاني المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء
الأندلس لمحمد بن هشام الأموي في زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء
الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف
الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني المتوفى سنة ٣٥٧
وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني، ومرَّبنا في الفصل الماضي أنه ألفه للحكم
المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادي وكان ابن داود وزَّع كتابه على
مائة باب وأودع في كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مرَّبنا - في مائتي
باب وفي كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبياناً لتفوقهم في الشعر
وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً في أخبار شعراء الأندلس،
وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السَّاء كتاباً مماثلاً، وألف ابن الكتَّاني «كتاب
التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو غاذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء
الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألمنا به في حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية في
الفصل الماضي. وفي سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء
الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

وغضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدَّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله
كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعَنَ بجذب الشعراء إليها كما عُنيَت إمارة بني عباد
بإشبيلية، فقد أكثرُوا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحوالوا إشبيلية

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء في المغرب
وخاصة في كتاب مدينة الزاهرة ١٩٧/١-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم في الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها في عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح في وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع في وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزني وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلي وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبي الذي اتخذته وزيرا ومدبراً لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجدد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المرعزي النصراني الإشبيلي. وكاد أن لا ينجم في بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبي الذي وفد على أبيه، وانهقدت بينه وبين المعتمد صعبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البُشَرات في البيرة ابن القزاز محمد بن عبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وهبون الذي تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذي تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغيات براكش. ومن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل في هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء في عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولناخذ مثلا المريّة، فقد كان من أمرائها راعٍ كبير للشعر هو المعتصم بن صُباح الذي ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد في إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركى يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيري الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بليطة الطليطلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا في أن تتعدد بالأندلس المراكز التي تُفدُّ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفاً زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هي التي تنثر الدنانير، أما في هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل برزتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمرية ومُرْسِيَّة ودانية وبطليوس وطليلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة في هذا العصر هي ظاهرة الشعراء الجوالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير في طلب النوال والمال مثل أسعد بن بليطة الطليطلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبي عامر بن الأصبلى وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبوني المبدع، ورأى أن يرجع أخيراً إلى موطنه «القبْذاق» ويشغل فيها بالزراعة بعد أن كَلَّتْ قدماء وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء^(١). وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هي ظاهرة المداحين المتسولين من أهل الكُدْيَةِ الذين يسميهم ابن بسام في الذخيرة باسم القوالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائد على الأبواب وفي الأسواق يَسْتَجِدُّون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مقانا:

البرقِ لائحٍ من أندرينْ ذرفتُ عيناك بالدمعِ المعينِ^(٢)

ويقول إن طائفة القوالين في الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة في اللفظ وسلاسة^(٣).

وينتهي عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس في عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى في الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم في الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعى أن ظلَّ يعيش في عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا في عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء في هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبي

(١) الذخيرة ٧٨٧/٢.

(٢) الذخيرة ٧٩١/٢.

(٣) أندرين: قرية بالشام.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطونة وعلى بن الإمام
ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى
تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملتمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن
الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب
الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب
وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية
وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار
الأصولى الملقب، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيلى ويحيى بن بقى
واليكى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى
الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين
والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضا فإنه ترجم لابن قزمان
الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة
٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاما، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من
أربعين شاعرا نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن
الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والحراز
البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمار تلميذ ابن باجة ومحمد بن
عبد الواحد الملاحي مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن
عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن
عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصاصى محمد بن غالب
وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى.
وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده
لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى
الفيلسوف وعلى بن المربى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق
وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبى. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع
إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبلى والبلارج القرمونى وابن
الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى
الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا برّزت فيه أخواتها في البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرئ في النفح لأكثر من عشرين شاعرة، منهن في القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشّ عاصم بن زيد، ومنهن في القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجازية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجائية، ومنهن في القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفي ومهجة بنت التيّاني القرطبية ومريم بنت أبي يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجازية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتاد المعروفة باسم الرُمّكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صهاح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطي سير بن أبي بكر وإلى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضّروهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدى بعض انتقادات على ما تسمع. ومن ترجم لهن المقرئ في القرن السادس نزّهون بنت القليعي وحمة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسَاء العامرية، وترجم المقرئ في أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وثير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى في نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تمتلئ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنحول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدي العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشاليين وأن يكون دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبنائه وأحفاده يقومون عليها حتى غلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسُّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يترأى لهم سريريا، وكان ذلك سببا في أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التي أثروا بها تأثيرا عميقا في البلاد المغربية، خاصة في مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب نُشرَ يحمل له باسم اختصار القُدَح المَعْلَى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس في المائة السابعة من جالسهم في الأندلس وقيد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم في البلدان المغربية وخاصة تونس أو في البلدان المشرقية في الإسكندرية أو في القاهرة أو في دمشق، وقد بلغوا في كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته في كتاب المغرب، ومن يذكره بينهم أبو الوليد الشقندى صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس وتفوقها الثقافى والأدبى، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجياني ويقول إن أباه ممدوح مدغليس في أزجاله. ويتوسع في الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عنى بالحديث عن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيرة وتحفة القادم ومعجم الصدفي وبها توفي سنة ٦٥٨ ومثل أبي المطرف أحمد بن عميرة وأبي الحجاج يوسف البياسى وابن هُشِك محمد بن يحيى. ومن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلي المطبُّب وقد عيَّنه المصريون في مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دحية الذى أسند إليه السلطان الكامل رئاسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذى جعله رئيسا للعشائين أو الصيادلة في القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربى المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفي سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القُدَح المَعْلَى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس في المائة السابعة. ونلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاههم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبى حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر في إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين في شعراء الأندلس في المائة الثامنة كتاب نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه في طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة للسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل في كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في الأندلس منذ اكتمل تعريبها في القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حياً بل مزدهراً في الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلما وجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك في ذلك علماءهم من كل صنف ورجالهم ونسائهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخزاز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلها مرج الكحل الشاعر البلبسى فقد نشأ ينادى في الأسواق ويتعش من بيع السمك، وأخذت هبته تترقى قليلا قليلا في حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاح الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ولبيه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويظن أنه كان لاتساع موجه الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مر بنا فى الفصل

الأول أثر كبير في نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفترة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها»^(١). ويسمى ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»^(٢) وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم في نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربي وأوزانه وإنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربي^(٣)، وهو خطأ في الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة» عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما رددته العروضيون المشاركة والمغاربية من أن الدوائر الخمس التي ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريض الشعر العربي تفسح لأوزان مهمة لا تنحصر لم يستخدمها العرب في أشعارها، واستخدمها في عصره - كما يقول صاحب الأغاني - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمِيدَع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْنُ العروضى وأتى فيه ببدايع جمة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس^(٤) وقد أنشد ياقوت قصيدة له في مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربي وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهمة، وهو - في رأينا - عكس وزن المنسرح. وبعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهمة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول»^(٥).

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهمة غير المستعملة التي أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

مكى في كتاب أثر العرب في النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

(١) راجع كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن

سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة

المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنتي في تاريخ الفكر الأندلسى

ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهمة التي لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - في رأيه - محمد بن حمود القبري الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذي يأتي في الخاتمة. وربما كان ذلك مادعا «رييرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعري يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانشية في الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بقص من الجواهر الكريمة. وليس في يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانشية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصح منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية في نهاية الموشحة على سبيل النظر، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين^(١). وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن في القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانشية إلى أغنية رومانشية كانت متداولة في الأندلس أو تغنى، فالقول بذلك إنما هو - في رأينا - مجرد ظن لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يجنحون أحيانا في بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانشية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط في المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللحن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويجعل الخرج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعاراً على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولا بد في البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»^(٢). وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

العصر العباسي الأول ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق

الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٣٠.

(١) انظر في ذلك فصلا فتحه الجاحظ في البيان

والتيبين (طبعة هرون) ١٤١/١ - ١٤٤ لمن كان

يتلمع بإدخال ألفاظ فارسية في شعره من الأعراب

فضلا عن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب في استخدام الوشاح الأندلسي أحيانا للخرجات الرومانسية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني من خرجات الموشحات في كتابه - الزجل الأندلسي - يلاحظ أن كثيراً من الخرجات العجمية التي ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمرها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذلة لعاشقها تذلاً شديداً، وقد يصاغ ذلك في خرجات عامية ولكن في تلميح غالباً دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه في عبارة لاتينية دارجة أو رومانسية وهذا - في رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية في بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغاني. الرومانسية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التي ظهرت منذ القرن الثاني الهجري على لسان أبي نواس وأضرابه يلاحظ تواً أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان في الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر، تتفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطر الأخيرة في كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذي يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركز أو القفل في الموشحة، وكل ما بينها من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسمط واحد بينها هو في مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان في الموشحات الأولى شطراً واحداً. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذي اختاروه لها اشتقاقاً من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من المسمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقي جميعاً عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور في المسمط مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أي الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذي يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالف بينها ويُعطف أحدهما على صاحبه. وهي تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القيرى وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامي أو العجمي مركزاً أو كما سُمي فيما بعد قفلاً ويضع عليه أشطاراً، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطراً واحداً بالضبط كما كان في المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهى الأعاريض التى أشار إليها الخليل بن أحمد فى دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية^(١) بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول فى الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضى وأبى العتاهية فى بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذى ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادى الكندى المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام فى نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر فى الموشحة من التضمين فى المراكز» يريد أنه أول من أحدث فى الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور فى المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعة. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجى، الأنصارى المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديداً هو تضمينه مواقع الوقف فى الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة فى أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التى حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منأدها، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاعر الكتبى احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيها أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء فى كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعة فى هذا الغصن متغزلا^(٢)

لَيْلِيَّةُ الذَوَائِبِ	وَوَجَّهَهَا نَهَارُ ^(٣)
مَصْقُولَةُ التَّرَائِبِ	وَرَشَفَهَا عُقَارُ ^(٤)
أَصْدَاغُهَا عَقَارِبِ	وَالْحَدَّ جُلَنَارُ ^(٥)

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها فى القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا فى الموشحات بعده. والوزن فى هذا

(١) راجع فى ذلك ترجمة الخليل فى كتابنا المدارس

(٣) الذوائب = الضفائر.

(٤) العقار = الحصر.

(٥) جلنار: زهر الرمان.

النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.

(٢) راجع الموشحة فى الفوات ١/٤٢٨.

الفصن والأغصان بعده مستفعِلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى التي أنشدها ابن شاعر من وزن الرمل أقفاها وغصونها، ومطلعها:

مَنْ وَلِيَّ فِي أُمِّهِ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يَغْزَلْ
إِلَّا لِحَاظِ الرَّشَاءِ الْأَكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تنظم إما على أعاريض الشعر العربي المستعملة وإما على أعاريضه المهملة، وموشحته تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب في الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بفصن ويسمى - حينئذ - أقرع، وقد يتألف القفل من جزئين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الفصن. ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا، ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزاز محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان هو والقزاز فرسى رهان في العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح في المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله في موشحة مدح^(١) بها المعتمد:

يَفْتَرُّ عَنِ لَوْلُؤٍ فِي نَسَقٍ مِنْ الْأَقَاحِ بِنَسِيمِهِ الْعَبَقِ
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِرَشْفِ الْقُبُلِ
هِيَهَاتَ مِنْ نَيْلِ ذَاكَ الْأَمَلِ
كَمْ دُونَهُ مِنْ سُيُوفِ الْمُقَلِ
سَلْتُ بِلَحْظٍ وَقَاحٍ خَجَلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعِلن فعِلن مُستَعِلن. والثاني على زنة: مُتَفَعِلَاتٍ والثالث على زنة: متفاعِلن. والرابع على زنة فعِلن. واجتماع هذه التفاعيل تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الفصن

(١) انظر الموشحة في دار الطراز ص ٥٤ وفي المغرب ٤١٤/٢.

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربي مستعمل بكثرة ونقص وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة في موشحاته مرارا لعدوئته.

وتتسع موجة الوشاحين في عصر المرابطين، ومن أهمهم في عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلي المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِيّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخسه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلي يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخسه بترجمة بين الشعراء، ويكفي لبيان مهارته في صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم في مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بَقِيّ والأعمى التطيلي، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانٍ سافرٌ عن بَدْرٍ
ضاقَ عنه الزمانُ وحَواه صَدْرِي

مَزَّق ابن بَقِيّ موشحته وتبعه الباقون^(١) لما فجأهم به التطيلي في موشحته من عدوية في اللفظ وروعة في التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثاني والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعَلن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله في الغصن الأول:

أَوْ مِمَّا أَجَدُ شَفْنِي مَا أَجَدُ
قَامَ بِي وَقَعْدُ بَاطِنُ مَتْنِدُ

وكان التطيلي تعمّد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربي مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة في موشحات التطيلي الملحقة بديوانه كقوله في موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُتَّ الكُتُوسُ رَوِيَّةٌ عَلَى رُوءِ البَسَاتِينِ مِنْ قَهْوَةٍ بِابِلِيَّةٍ
أَرْقُ مِنْ دَمْعٍ مَحْزُونِ

خَلَعْتُ عِزِّي وَدِينِي فِي أَهْيَفِ الْقَدِّ لَدُنِي

(١) المغرب ٤٥٦/٢ والمقتطف ص ٢٥٦.

يَسْطُو بِسَيْفِ النُّونِ مَا جَفَّنْهُ غَيْرَ جَفْنِهِ
يَا قَسْوَةَ الْحُبِّ لِيْنِي وَلَوْ بِرُمَانٍ غَضَّتْهُ

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا عل وزن المجتث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلي من الوشاحين النابيين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره في الفصل الماضي وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا في مديح ابن تيفلوت المرابطي الوالي على شرقي الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابن تيفلوت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشی ابن باجة في طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين في عصر المرابطين الأبييض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو بكر بن رُحيم ويحيى بن الصيرفي المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناء من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثاني من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة في الجزء الأول على هذا النمط^(١):

يَا رَبَّةَ الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ مِيلِي
رَأَيْتُ فِي وَجْهِكَ السَّعِيدِ عَيْدِي

وتظل الموشحات مزدهرة في عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤ هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبدالمؤمن والي غرناطة كما يتضح في موشح له بديع^(٢) مستخرجا الجزء الثاني من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله في مطلعته:

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسُّعُودِ بِاللَّهِ عُودِي

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثاني مستفعلن، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المربني وفي المغرب له موشحة^(٣) بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس في إحدى موشحاته:

(٣) المغرب ٢/٢١٨.

(١) المغرب ٢/١٤٧.

(٢) المغرب ٢/٢١٥.

ورداء الأصيل تطويه كف الظلام

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء^(١)؟ وهى صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحِلُ الدُّجَى يَجْرِي مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ
وَمِعْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلَلِ خُضْرٍ مِنْ الْبِطَاحِ

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا^(٢) لعذوبة ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجاء، وله موشحة^(٣) بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد في الدفاع عنها في إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وسنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرداء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٧، وله في إحدى موشحاته^(٤):

وَأَفْرَدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبِتُّ عَلَى جَمَرَاتِ الْغَضَا
أَعَانِقُ بِالْفَكْرِ تِلْكَ الطُّلُولُ وَالْتِمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومُ

وأغصان الموشحة وأقفاؤها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدین إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى في حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا في عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأشهر موشحاته^(٥):

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّه عَنْ مَكْنَسٍ
فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفِيَ مِثْلًا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وقد صاغه أقفالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ومهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربي والششتري. وملتقى في غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

(١) المتطف ص ٢٦٠.

يستوقد بخشبه.

(٢) المتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلي (طبع بيروت)

(٣) المغرب ٢١٧/٢.

ص ٢٨٣ ومكس الطي: مأواه في الشجر ليستتر

(٤) المغرب ٢٨٩/٢ والغضا: من أسجار نجد.

به. القيس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتحا لها بقوله^(١):

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمِي يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلماً في الكرى أو خِلْسَةً المختلسِ

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقي وابن زهر.

ابن عبادة^(٢) القزاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال إنه من حصن بلور من إقليم غرناطة وظنه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صراح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبداً لآل صراح وفي أرضهم أصلى وعيشى ومولدى
لما كان لى إلا إليهم ترحلُ وفي ظلهم أمسى وأضحى وأغتدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحُفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، وورق ديباجه، ورصع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات في كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلي ويحيى بن بقي من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

(١) ٢٥٢/٢ والأخيرة ٨٠١/١ وما بعدها والخريدة

(طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء

الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ٢١٣/٢ وهى: سقط مدرارا.

(٢) انظر في ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن

خاقان: ١٤ والمغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض

قال: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَذَرْتِمُ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِنْكَ شَمُ
مَا أَنْتُمْ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْزَقَا مَا أَنْتُمْ
لَا جَرَمَ مِنْ لَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حُرِمَ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدِّدُ رشاقة كأنما تطير بها في خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هي مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء في كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز في الجزئين الأولين فاعلن على مستفعلن. ويمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداها من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرَّ بنا في قفل موشحتين للتطيلي وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجري على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن «رييرا» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التي نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع في دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدِّمًا ومؤخرًا في أسبابها وأوتادها ومستخدمًا إشارات من النقاط والحركات تصور ما يحدث في التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهلها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئًا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهملة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا في نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبري الوشاح الأول أثبتتها مفصلة في كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التي أنشدناها والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عَرَضٍ لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التي رأيناها في الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول في أحد الأغصان:

وجارياتٍ تجولُ مثلَ الجياد السابقة
إنشاءً مَنْ فِي المَحْوِلِ يُنْشِئُ السحابَ الوَادِقَةَ^(١)

(١) المحول: المجدب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد

بوجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سَمَتْ عَلَى النِّجْمِ طَوْلٌ مِنْهَا فَرُوعٌ بِاسِقَةٍ^(١)

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافات. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسباب بين مديح المعتصم بن صادح والمعتمد بن عباد ، وفي أحد أقفاها يقول فيها:

بَحْرًا نِعَمٌ لِمَنْ وَرَدَ ظَمَانٌ سِيفًا نِقَمٌ لِمَنْ مَرَدَ^(٢) أَوْحَانُ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى^(٣) بن بقى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القيسى المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح في القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيه طائعه، إذا نظم أُرْزَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقْم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهي الجمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَعَلَّتْ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فَأَعْجَزَنِي نَيْلُ الرِّغَائِبِ حَتَّى أُبْتُ بِالنَّدَمِ

ولم يلبث أن فُتِحَ له باب كبير هو باب بنى عَشْرَةَ قِضَاةٍ سَلَاً بِالْقَرَبِ مِنَ الرِّبَاطِ

ومعجم السلفى ٥٠ والخريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفع الطيب في الجزين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرباض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة في المغرب وثانية في معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتد من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر في يحيى بن بقى القلائد ٢٧٩ والخبرة

٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم

٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢

والإحاطة ٤١٨/٤ والمقنطف ص ٢٥٦ وما بعدها

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة في الجود فغمروهم بجودهم وخاصة يحيى بن علي بن القاسم وأخاه أحمد قاضي سَلا، فمكث في رحابها طويلا، وأضفى عليها من شعره وموشحاته دُررا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي مدح بها القاضي أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحقُ
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرقُ

وهو لم يحسده في رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره في الفقرة الثانية إذ جعل القاضي أحمد كوكبا يبرز في المغرب ولا مثيل له في المشرق. ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبته:

عطا بليتَيْهِ ومراً كالطَّبْيِ لِيِيْدِهِ^(١)
فدلاً عليه تكسّر الحَلْيُ بِجِيْدِهِ
تفتيرُ عَيْنَيْهِ يُسرِعُ في بَرَى عَمِيْدِهِ

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرّت سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الأطباء بل هي من النساء إذ سمع صوت الحلّى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع في ضنا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقي لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» والمقرى في أزهار الرياض ومع ذلك نجد في ديوان التطيلي خطأ^(٢) كما نجد أختا لها في ديوانه أيضا وهي في مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقي الذي تقيًا ظلّاله،

(٢) انظر ديوان التطيلي ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢٠٩/٢.

(١) الليث: صفحة الجيد وجعلها تمطو بها وتمدها، كناية عن طولها.

وينصر ابن سناء الملك في مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه^(١) وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِمْمَةُ العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني
لما جنى الوَرْدُ مِلءَ كُفَيْهِ تشوّفتُ وردتان إليه
فحلّنا في رياض خَدَيْهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبي كفاني» لأن وزنه مستفعّلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد في حدود صاحبه تنقلنا إلى عالم شعري حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

يا وَيَحْ صَبُّ إلى البرقِ له نَظْرُ وفي البكاءِ مع الورقِ له وَطْرُ

من وزن البسيط أفعالا وأغصانا، وهو يضم في الوزن الجزئين الأولين والتاليين بعضها إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن في أفعالها وأغصانها مستفعّلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة في كثير من أغصان ابن بقي وخرجاته كقوله في موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلٌ ولا مُعِينُ يا قلبَ بعضِ الناسِ أما تَلِينُ

وقوله في خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

اختلطت بموشحات التطيل وخاصة في كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ في نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيل وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!

(١) راجع ديوان التطيل ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد في المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقي وقد أضيفت إلى التطيل في ديوانه ص ٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقي

سَافِرُ حَبِيبِي سَحَرٌ وَمَا وَدَّعْتُ يَا وَحْشَ قَلْبِي فِي اللَّيْلِ إِذَا افْتَكَرْتُ

وكلمة وحش حذفت منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتن. وهذه الألفاظ الغزلة المفرطة في السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره، وقد لبَّى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر^(١) بن زُهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية ألمنا بها بين الأطباء في الفصل الماضي، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخارى أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحُدث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفي في آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضة الأمراء في مراکش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه:

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَنَدِيمٍ هَمَّتْ فِي غُرَّتِهِ
وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ
كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
جَذَبَ الرُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والواق للصفدى ٢٩/٤ وراجع في موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبي أصيبعة وتوشيع التوشيع للصفدى (انظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيع لابن الخطيب.

(١) انظر في أبي بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر

والموشحة من وزن الرمل، وهي تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة في نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذاً بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الغصن وقفه:

هل تستعاذ أبأمننا بالخليج أو لياينا
إذ يُستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا^(١)
وإذ يكاد حُسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظله دوح عليه أنيق مورك فينان^(٢)
والماء يجري وعائث وغريق من جنا الریحان

والغصن والقفل جميعا يزخران بشجى يثير في القلب حنيناً بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالي ولا ما كان في حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شيء فيها كان يلقاها بالتحيات والبسات، وماء نهر إشبيلية يجري من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظلل، والرياحين والزهر بين سابح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتزع منه انتزاعاً. وزنة الجزء الأول في القفل والغصن مستفعلتان، وزنة الجزء الثاني مستفعلن فاعلان، وزنة الجزء الثالث في القفل فاعلان وفي الغصن فعلن، وبذلك يرد وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائماً وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات في تفاعل هذه الموشحة وما مائلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجري أحياناً على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربي كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمي الوهية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قلبي من الحب غير صاح صاح
وإن لحاني على الملاح لاح لاح
وإن درى قصتي وشاني شاني

والجزء الأول في الغصن والقفل من مخلع البسيط، والجزء الثاني على زنة فعلن تفعيلة

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربي ينسب إليها المسك والطيب.
(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم،
 وشأنى الأولى: مخفقة من شأنى والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة
 يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه
 ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريقة
 كفوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:
 طرقتُ والليل ممدودُ الجَنَاحُ مرحباً بالشمسِ من غير صباح

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبتة فأضاءت فى هذا الليل كأنها
 شمس تطلع دون صباح مما يلقى فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا
 وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دحية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب
 افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشعورِ على أوجِهٍ كالبدورِ
 سَفَرْنَ فلاح الصُّباحِ
 ضحكَنَ ابتسامَ الأَفَاحِ
 كأن الذى فى النُّحُورِ تَخَيَّرْنَ منه الثُّغُورُ

والصور طريقة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحيه ظلام الشعور وبدور
 أو أقمار الوجوه ويضيف أنهم سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح،
 وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأفاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور
 لنصاعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود
 اللآلى التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تَخَيَّرْنَ ثغورهن من تلك اللآلى البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقی واین عبادة القراز
 وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى
 الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل
 غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء
 الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شىء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية
 غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أَرشَقُ الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة
 وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قَصَّروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان،
 حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وفرة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسحاب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يم من الأنغام تفرق الأذن في خضمه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وضعت في نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانشية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربي المهملة التي حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فظنوا في دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك في موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب في بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك في الموشحة، بحيث تدخل بدقة في أعاريض الشعر العربي وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربي وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل^(١)، وهو في اللغة التطريب، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة. وفي اسمه الذي اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك في بعض أزجاله^(٢)، وملتقى بعده بابن عبد الرؤوف ورسالته في الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغي أن يمنع الذين يمشون في الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز^(٣). وحين رأى المستشرق الإسباني «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنهما بها في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعري شعبي تمزج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذا صورتين هما

وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ في ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرؤوف في

ثلاث رسائل نشر بروقنسال.

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني (نشر معهد الدراسات العربية العالية في الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢

الموشحة الفصيحة والزجل السوقى الدارج^(١)، ويبسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدّم براهين جلية على وجود لغة رومانية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن فى قرطبة»^(٢). والشعبتان جميعا كما يراها ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقضى، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب^(٣). ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول من بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا درّسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبين دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانية يحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استحدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما يمنعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

ص ١٨٦.

(١) انظر بالنشأ ص ١٤٢.

(٢) المقتطف ص ٢٦٣.

(٣) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى

المتوفى في منتصف القرن السادس يحدثنا في مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا في زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهى أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصيل بالألفاظ العربية الجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساساً للزجل أخطأ بن غماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائياً قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن غماره تفاصيله ببعض الألفاظ التى لا تجرى في العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلَّاهَا، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه^(١)». ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»^(٢).

ومعنى ذلك أن تصور «رييرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكراً مع الموشحة وأنه نُظم بلغة رومانية دارجة كانت تشيع على السنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانية، ونُظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت في عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخص ابن قزمان بكلمة. وينبغي أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجهاها الفاتن والمديح والهجاء والرتاء وجميع أغراض الشعر العربي، وكان كثير منه يُنشد في الحث على جهاد النصارى وفي المناسبات الدينية. وأكبر زجال في الجيل التالى لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مدغليس^(٣)، وهو من أهل المريّة، وله أزجال كثيرة في مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرئ في نفع

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٣) انظر في مدغليس المغرب ١/ ٢١٤ وتعليقنا

على ترجمته في الهامش.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على

عبد الواحد وافي) ص ١٣٥٠.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أدبيًا معربًا لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنها كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه^(١) وكان ديوانه يُروى في المشرق وحصل صفى الدين الحلبي على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسي وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وذكر له قطعًا من أزجاله وأروعها الزجل الذي أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:^(٢)

ثلاث أشيا فالبساتين	لَسْ تُجَدُّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
النَّسِيمِ وَالْحُضْرَةِ وَالطَّيْرِ	شِمٌّ وَاتْنَزَرَةٌ وَإِسْمَع
وَرَذَاذًا دَقٌّ يَنْزِلُ	وَشِعَاعِ الشَّمْسِ يَضْرِبُ
فَتَرَى الْوَاحِدَ يَفْضُضُ	وَتَرَى الْآخَرَ يَذْهَبُ
وَالنَّبَاتَ يَشْرِبُ وَيَسْكُرُ	وَالْغُصُونَ تُرْقِصُ وَتَطْرَبُ

ويشيد في نهاية الزجل بغناء أم الحسن. والزجل مفعم بالسلاسة والعدوبة والتساوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحيته. ومع أن مدغليس لم يوحد القوافي بين الأجزاء الأولى المتقابلة في قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها في الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان في بعض أزجاله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته في اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه في انتخابها حتى لكاننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد العامية التي أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياسًا على الموشحة صاغ القصائد العامية قياسًا على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مر بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن علي بن محمد الشاطبي، وقد أنشد له صاحب العاقل الحالى قطعة من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفًا حال العدو^(٣):

(٣) انظر العاقل الحالى ص ٣٤ و: ٨٠.

(١) النفع ٣/٣٨٥.

(٢) المغرب ٢/٢٢٠.

كَلِمَا رَا السِّیُوفَ إِلَیْهِ تَنْجَرْدُ صَاحٌ وَیَشْكُو وَثَمَّ لَمْ یَرْتَفِدْ^(١)
یَنْبَحِ الْكَلْبُ إِذْ یَرَى الْأَسَدَ وَالْأَسَدُ لَسَّ یَهْزُو ذَاكَ النَّبَاحَ

وَرَجَاعَتْ عَلَیْهِ جُنُودٌ وَوَبَالَ وَمَالَ النَّحْسُ مَا عَوْ كَفَّ مَا مَالَ
لَمْ تَنْجِیْهِ وَصِیَّةُ الْكَرْدِ نَالَ وَلَ فَاذَتْ نَصِیْحَةُ النَّصَّاحِ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد في المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقي، ومنهم زجالو إشبيلية: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خاطب وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن^(٢) ناجية اللورقي. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالي القرن السابع أمثال البُلَّارِجِ القرموني ويحيى بن عبد الله بن البحبضة. وترجم لابن الدباغ^(٣) المذكور أنفاً وقال إنه لقيه بالقة وأنه إمام في الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتبع له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششتري المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاقل من زجل قوله^(٤):

يَا حَبِيبَ قَلْبِي تَعَطَّفْ بَعْضُ هَذَا الْهَجْرِ يَكْفَى
فَدُمُوعَ عَيْنِي مَا تَرَقَّا وَلَهَيْبَ قَلْبِي مَا يَطْفَأُ

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس في المغرب ونظم لهم نوعاً من الشعر الملحون في أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض^(٥) البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين في عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام في الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلاً لمدغليس استهله بقوله:

حَلَّ الْمَجُونُ يَا أَهْلَ الشُّطَارَا مَذْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي ونتحدث عن بعض أزجاله.

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بدد من قومه. (٤) العاقل الحالي ص ٥٦.

(٢) انظر في هؤلاء الزجالين فهرس المغرب. (٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

(٣) المغرب ٤٣٨/١.

ابن قزمان^(١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش في عصر المرابطين إلى أن توفي بعده سنة ٥٥٥ للهجرة في صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفي المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه في قرطبة نشأة علمية أدبية، وهى نشأة أهلته ليكون أديباً وكاتب وناثق كما يكون شاعراً ووشاحاً^(٢)، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات في كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة في مديح يحيى بن غانية وإلى غربي الأندلس من قبل على بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص في مجلس شراب، فأطفاً فيه السراج بأكمامه. ولعل في ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكراً للمتاع بالخمير واللهم. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاقل الحالى موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً^(٣). وفي المغرب أنه «كان في أول شأنه مشغلاً بالنظم العرب (شعراً وتوشيحاً) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها، بل في كل مدن الأندلس، وأيضاً في المغرب والمشرق، حتى لتحفظ العصور بخطوطه من ديوانه كتبها نساخ بمدينة صفد في فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصورة في لوحات، وعنى في سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكي «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة في مدرسة الدراسات العربية بمديرد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ في رأينا خطأ كبيراً حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربي القائمة على النهر والمقاطع كأوزان الشعر الإسباني بحجة أن الزجل نظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهى حجة لا دليل

(١) الفهرس) والواق للصفدى ٢٠٠/٤.

(٢) راجع الزجل السابع في الديوان.

(٣) العاقل الحالى ص ٨٢.

(١) انظر في ابن قزمان المغرب ١٠٠/١ و١٦٧

وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار في مجلة المشرق

عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٢٧٥ والإحاطة

٤٩٤/٢ والعاقل الحالى لصفى الدين الحلى (انظر

عليها أى دليل، بل كل شىء ينقضها نقضاً فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وتأتى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعاً لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صنف قديماً أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاقل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب^(١). ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غنية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، وقرأى لنا فيه ابن قزمان ما جئنا عاكفاً على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرفعون ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مراراً مجاهراً به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحياناً إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المرفقة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداحاً كبيراً للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح. وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصوراً فى تضاعيف ذلك يؤسه وحرمانه وما هو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحينا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامة

(١) العاقل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين الأقفال والأغصان من غير أن يخسروا فى الميزان. ذلك قاتلاً إنهم خالفوا أحياناً بين الأوزان فى

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقتها من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ في الديوان:

لَأَنْسِيَتْ إِذْ زَارَنِي جِيَّ وَاِنْجَلَى هَمِي وَزَادَ كَرْبِي قُلْتُ لَهُ وَقْتًا أَخَذَ قَلْبِي
قَالَ مَتَى تَجِينِ قُلْ غَدَا وَغَدَا لِلنَّاضِرِينَ قَرِيبُ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف في جزئي القفل. والجزء الثاني في الغصن: «وانجلى همى وزاد كربى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه زاد كربيه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفه العشق. ويقتطف صفى الدين الحلى هذا المطلع من أحد أزجاله^(١):

قَالُوا عَنِّي بِأَنِّي فَيْكَ عَاشِقُ إِشْ تَقُلْ يَصْدُقُوا
يَا حَبِيبِي لَقَيْتُ كَثِيرٌ فِي النَّاسِ بِالصَّوَابِ يَنْطِقُوا
هَذَا شَيْءٌ وَالنَّبِيُّ يَانُورُ عَيْنِي مَا تَحَدَّثْتُ بِهِ
وَلِ بِاللَّهِ خَطَرٌ عَلَى بَالِي لَا وَلَا خُضْتُ فِيهِ

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستعلنن فعَلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتتخللها أحيانا قطع أو فقر بدبعة فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الرَّبِيعُ يَنْشُرُ غَلَامُ مِثْلَ سُلْطَانٍ مُؤَيَّدُ
وَالثَّمَارُ تَنْثُرُ حَلِيَّه بِشِيَابٍ يَحُلُّ زَبَرْجَدُ
وَالرِّيَاضُ تَلْبَسُ غِلَالَا مِنْ نَبَاتٍ فِحْلُ زَمْرَدُ
وَالْبَهَارُ مَعَ الْبَنْفَسَجِ يَاجْمَالٍ أَبْيَضُ فِي أَزْرَقُ

واستمر يذكر الندى يترقق على الغصون وأزهار الخيرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانية فإنها جاءت من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانية كما ظن «ريبيرا»

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة في أزجاله صياغة عامية عربية هي عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيها أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية المجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.^(١) ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها في كتاب العاقل الحالى، إذ لم يتصد أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا في الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنتيجة حديثا مفصلا عن مدى تأثيره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنتيجة في الحديث عن تأثير الزجل في الأغاني الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها في قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سماه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا في القرن الرابع عشر الميلادى الذى سماه: «الحب الطيب» ويقول بالنتيجة إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

(١) انظر العاقل الحالى ص ٦٤ وما بعدها

شعراء المديح

طبيعي أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون في التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). كما مرّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش في عصره من الشعراء يديج القصائد في مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس^(١) بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه في التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله في تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة في نبأرة بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول^(٢):

مَكْرَمِينَ عَلَى الدُّنْيَا عَزِيزِينَ	إِنَّ الْقُفُولَ الَّذِي أَوْفَى بَعِيدِينَ
قُدُومٌ فَطَرُ فَكَانَا خَيْرَ عِيدِينَ	قُدُومٌ أَكْرَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةً
تَوْرَدًا فِي بَيَاضٍ بَيْنَ صُدُغَيْنِ ^(٣)	طَابَا كَتِفَا حَتَّى خَدَّيْ مُنْعَمَةً
مَكْحُولَتَيْنِ بِسِحْرِ الْبَابِلِيِّينِ ^(٤)	أَوْ مَقْلَتَي رَشَاءٍ فِي طَرْفِهِ حَوْرٌ

ونلتقى بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفي مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد^(٥) الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف في المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان في قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لك:

(٤) البابليان: هاروت وماروت الشهران بالسحر.

(٥) انظر في ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضبي رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان في الجزء الخاص بعيد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن في مسجده وهو وزير.

(١) انظر في عباس بن فرناس المقتبس لأبي حيان (تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدي ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية الملتبس رقم ١٠٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة في المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

قد جاءك الفتح في العيد الكبير فما رأيت مثلها في اليوم عيدين
يا فرحة من رأى في الغزو طالماها وشاهد الفتح لم يأسف على البين
ألذ في السمع من بشرى الحميم إذا وأفى ومن منظر المعشوق في العين

ومدح البيت الأموي الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذي أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة في أوروبا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التي تفككت في عهد جده عبد الله، ودان حكام نبارة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومرر بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء في زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفي مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول في مدحة ميمية: ^(١)

يَهْنَأُ الْخِلَافَةُ سَعْيُ خَيْرِ إِمَامٍ اللَّهُ مَسْعَاهُ وَإِلَاسْلَامِ
لِيُعَزَّ دِينَ اللَّهِ فِي كَنْفِ الْعُلَا وَيَذُبُّ عَنْ حَرَمِ الْهَدْيِ وَيُحَامِي
مُسْتَجِزًا وَعَدَ إِلَهِهَ بِنَصْرِهِ فِي شَيْعَةِ الْإِشْرَاكِ وَالْإِجْرَامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال في شهر رمضان وأدركه عيد الفطر في بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزق جموعه تمزيقا. ولابن إدريس يذكر زيادته في جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها: ^(٢)

سَيَشْهَدُ مَا شِيدَتْ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ مُضِيْعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا
فِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالتَّقَى وَبِالزُّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعُلْيَا

وقد استحال جامع قرطبة في عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس في مدائحهم لأمراء البيت الأموي الدين الحنيف شعارا لهم في غزواتهم للمسيحيين في الشمال، فهم يحامون ويصلون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلُفَى لِرَبِّهِمْ. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب في الأندلس، بل في جميع العالم العربي، لعصره، غير أنه لم يكن داهية في السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية في تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويده بالسلاح

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمي، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبي العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه في تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده في الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية في حروبه مع نصارى الإسبان. وفي هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معنيين الانفصال عن معد الفاطمي ودعوته وولاءهما له، وهلل شعراؤه بوفادتهما طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص^(١):

بِأَيْمَنِ إِقْبَالَ وَإِسْعَادِ طَائِرٍ تَبَاشِيرُ مَحْتَوٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقِعٍ
تَوَافَتْ بِمُلْكٍ مِنْ مَعْدٍ مَقْوُضٍ لِمُلْكٍ إِلَى مَهْدَى مِرْوَانَ رَاجِعٍ
فِيَالِكِ مِنْ بُشْرَى سُرُورٍ تَضْمَنْتِ بِلَوْغِ الْأَمَانِيِّ عَنْ سُعُودِ الطَّوَالِعِ
فَجَعَفَرُ يُغْنِي عَنْ جُنُودٍ بِرَأْيِهِ وَيَحْيَى يَلَاقِي حَاسِرًا أَلْفَ دَارِعٍ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمي تقوض من أساسه للملك المرواني: الحكم، ويصفه بأنه مهدي منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنِي وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام في الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبي عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابنه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى في الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة في صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد^(٢):

الْيَوْمَ عَاشَ الدِّينُ وَابْتَدَأَ الْهُدَى غَضًا وَعَادَ الْمَلِكُ عَذْبَ الْمَوْرِدِ
مَنْ فَاتَهُ بَدْرٌ وَأَدْرَكَ عُمُرُهُ جَرَبِيرَ فَهُوَ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَسْعَدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر في ترجمة ابن شخيص الحميدى في الجذوة ص ٨٤ وبغية الملتنس ص ١١٩ واليتيمة للثعالبي (تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢/٢٢ وقال الضبي في البغية: له على لسان رجل يعرف بأبي الغوث أشعار مشهورة في أنواع الهزل.

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢-٧٣ وهو صاعد البغدادي اللغوى الشاعر الواقف على المنصور بن أبي عامر، وراجع ترجمته في الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والحميدى: ٢٣٣ والبغية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ٢٨١/١١ وإنباه الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشى ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

مبالغة في تمجيده لانتصار ابن أبي عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درّاج القسطلی
وسنخسه بكلمة. ويقول فيه وفي حجابته عبادة بن ماء السماء^(١):

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسرها فأصبح في أخلاقه واحد الخلق
فلا يغترُّ منه الجهول ببشره فمعظم هول الرعد في أثر البرق

وعاصر عبادة زمن الفتنة بقرطبة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد
الخلافة على بن حمود العلوي من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه
متحزبا له متشيعا بمثل قوله^(٢):

أطاعتك القلوبُ ومن عصيَّ وحزبُ الله حزبك يا عليَّ
وإن قال الفخورُ أبي فلان فحسبك أن تقول أبي النبي

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى
ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود
بجنود من البربر إلى قرطبة ويسترد الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة
الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فها أنا ذا يابن النبوة نافث من القول أريا غير ما ينفث الصل^(٣)
وعندي صريح في ولائك معرق تشيعه محض وبيعه بتل^(٤)

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضي فيذكر أن جده كان مواليا لعلی مما جعل
معاوية يبغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحنات الكفيف القرطبي يتشيع مثله للحموديين وله
مدائح متعددة فيهم وخاصة في علی بن حمود وفيه يقول^(٥):

إمام أقام الدين حد حسامه طريرا ومنه في يد الله قائم^(٦)

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسباع الحموديين في الأندلس، إذ لم يكونوا

(٥) انظر القصيدة في ترجمة ابن الحنات بالذخيرة
٤٣٧/١ وراجع ترجمته في الجذوة ص ٥٣ والبقية
رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١/١٢١
والتكملة رقم ٤٢٩ والوافي ٣/١٢٤.
(٦) طريرا: له رؤاء وبهجة.

(١) راجع ترجمة عبادة في الذخيرة ٤٧٥/١
وسنخسه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر في هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة
عبادة في الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: غسل النحل. الصل: الحية.

(٤) بتل: حق.

هم ولا آياؤهم الأدارسة في المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا في عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتديج فيه المدائح، إذ تكاثر الحب في تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحال قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث في الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة في هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني لإدريس بن يحيى الحمودي أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخمراً وسنعرض لذلك في ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشداً^(١):

وكانَ الشمسَ لما أشرقَتْ فاثَّنتْ عنها عيونُ الناظرينِ
وَجْهَهُ إدريسَ بن يحيى بن عليٍّ بنِ حمودِ أمير المؤمنينِ
كتبَ الجودَ على أبوابِهِ ادْخُلُوهَا بِسلامِ آمِنينِ
انظرونا نَقْتِيسَ من نوركم إِنَّه من نورِ ربِّ العالمينِ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بني جهور، ولما ظنوا أنه مشترك في مؤامرة ضدهم وزجوا به في غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله^(٢):

بنِي جَهْوَ أَحرَقْتُمْ بجفائكم جَنَانِي فما بالُ المدائحِ تعَبُّ
تظنونني كَالْعَنْبَرِ الوردِ إنما تطيبُ لكم أنفاسُهُ وهو يُحرقُ

ورُدَّت إليه حرите، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذته وزيراً له وأجزل له في الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون في إحدى مدائحه^(٣):

(١) انظر القصيدة في ترجمة ابن مقانا بالذخيرة سيد كيلاني) ص ٦٠ والمغرب ١/٦٩.

(٢) الديوان ص ١١٢.

٤٨٦/٢.

(٣) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد

هَمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ
 بَيْتُهُ يَمْرُقَاهُ سَرِيرٌ وَمَنْبَرٌ وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حَسَامٌ وَمُصْحَفٌ
 جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةٌ عَذْنٌ لِلْمُطِيعِينَ تَزْلَفُ^(١)

ومرّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بما قدموه لها من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له في الفصل التالي، ومن قصيدة له في مديح المعتمد^(٢):

مَلِكٌ إِذَا عَقَدَ الْمَغَافِرَ لِلْوَعْيِ حَلَّ الْمُلُوكُ مَعَاقِدَ التَّيْجَانِ^(٣)
 وَإِذَا غَدَتْ رَايَاتُهُ مَنْشُورَةً فَالْخَافِقَانِ لَهْنٌ فِي خَفَقَانِ^(٤)
 يَامَنْشَى الْعَلْيَاءِ بَعْدَ مَمَاتِهَا تَفْنَى النُّجُومُ وَمَا تُنَاوِكُ فَإِنْ
 الْأَرْضُ حَاجَتَهَا إِلَيْكَ بِطَبْعِهَا كَالْعَيْنِ حَاجَتَهَا إِلَى الْإِنْسَانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية في عهد أميرها المعتمد بن معن بن صُباح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعراً، فهتفت باسمه الشعراء في إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولوطاؤه أبي حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله^(٥):

وَأَحْسَنُ مِنْ رَوْضٍ تَحُلَّى بَنُورِهِ مُحَيَّا ابْنَ مَعْنٍ فِي حُلِيِّ الْفَضَائِلِ
 جَوَادٌ كَأَنَّ الْأَرْضَ جَمْعَاءَ رَاحَةٍ لَهُ وَبَحُورَ الْأَرْضِ خَمْسُ أَنْامِلِ
 جَلَلَتْ فَجَلَّ الْقَوْلُ فِيكَ وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ لِقَدْرِ السِّيفِ قَدْرُ الْحَمَائِلِ

وشاعر المعتمد المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتمد والمعتمد جوداً وشعراً ولِسناً وفصاحة المتوكل بن المظفر بن الأفطس أمير بَطْلَيْوُس، ولأبيه كتاب المظفرى في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس في عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتتلّى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

(١) تزلف: تقدّم وتصبح زلفى ومنزلة

(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣

(٣) المغافر: جمع مِغْفَرَة: زرد من الدروع على قدر

الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوعى: الحرب

(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة

نبضات القلب.

(٥) انظر في الأبيات ترجمة أبي حفص بن الشهيد

في الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره في الحميدى

ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية المتلمس

ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية في زمانه

وكان مقتصرًا على أمير بلده المعتمد بن صُباح.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة في الفصل التالي، وفيه يقول^(١):

طَبَّقْتُ آفَاقَ الْكَلَامِ فَلَمْ أَدْعُ زَهْرًا يَرِفُ وَلَا جُمَانًا يُنْظَمُ
لِلَّهِ دَرْكٌ هَلْ لِمَجْدِكَ غَايَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ بِهَا مَعْنَى مُفْرَمُ
هَزَّتْكَ أَرْوَاحُ السَّمَاحَةِ بَانَةً وَمِنَ الرَّجَاحَةِ فِي حِمَاكَ يَلْمَلَمُ
وَتَعَلَّمْتُ مِنْكَ الْغَمَامَةَ شَيْمَةً تَهْمِي وَفِيهَا لِلْبُرُوقِ تَبْسُمُ

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التي يشبه بها الشعراء محبوباتهم في الحسن سباحة وجودا، ومثل جبل يللمل في رجاحة العقل وحلمه ورزاقته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يفتقد أمواله على الشعراء والمجتهدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها ماتني تلمع كبساته التي ترسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة في أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا في الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمراء عاشوا للترف واللهو، وإن سددوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم في الإمارات وإخوانهم في الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين في الشمال، وسقطت طليطلة في حجز ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفكرين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفي مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين في المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية في غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس في الزلاقة بالقرب من بطليوس في اليوم الثاني من رجب سنة ٤٧٩ وصدق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - في وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقاً ذريعاً، وكأنما استوصل جيشهم استصلا، إذ لم ينج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولاً مقهوراً، وفرَّ على وجهه ألفونس يتسّم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنا الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح في تهنئة له^(٢):

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢. في الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت القزاز

ثناؤك ليس تَسْبِقُه الرِّيحُ يطيرُ ومن نَدَاكَ له جَنَاحُ
تطيبُ بذرك الأَفْوَءَ حتَّى كَأَن رُضَابَهَا مِسْكُ وَرَاحُ^(١)
جلبتَ إلى الأعَادَى أَسَدَ غَابٍ بَرَأَتْهَا الأُسْنَةُ وَالصُّفَا حُ^(٢)

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب في حمير وكان بنو عباد من قبيلة لحم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون في قصيدة ينشئ فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر الميمن منشدا^(٣):

نُمِي فِي جَمِيرٍ وَنَمَتَكَ لَحْمُ وتلك وشائجُ فيها التحامُ
فيوسفُ يوسفُ إذ أنت منه كيأمن، لا وهى لكما نظامُ
فإن يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كُحْرُ ولكن مثلما ينجو اللئامُ
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا كأن وهادها منهم إكامُ

وهو يجعل يوسف نفس سميه الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكماما وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة^(٤) للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولُقِّب بعد تلك الموقعة المظفرة بأمر المسلمين، وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية في موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجه قواته إلى حصن لبيط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار في الخلافات وفي الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت المسلمين في الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق في رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبي بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بلقين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد في إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبظليوس، وهلل

(١) الرضاب: الريق العرشوف. راح: خمر
(٢) البرائن: جمع برثن: مقلب السبع. الصفاح:
السيوف.

(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء

(٤) المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة في الفصل
التالي.
(٤) انظر في هذه التهنة الذخيرة ٨١٤/٣.

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، وبصور ذلك أبو الحسن بن الجدي في مدحة لابن تاشفين متشفيًا فيهم قائلاً^(١):

ناموا وأسرَى لهم تحت الدجى قدرُ هوى بأنجمهم خَسَفًا وما شعروا
وكيف يشعرُ مَنْ في كَفِّهِ قَدَحٌ تحدو به مذهلاتُ النَّأى والوترُ^(٢)
فَقُلْ لمن نام أصبحتَ أنتَبه فلقد مضى لك الليل صِرْفًا وانقضى السَّحرُ
وانظرْ إلى الصبح سَيَفًا في يدَي ملكٍ في الله من جُنْدِهِ التأييدُ والظفرُ
يرعى الرعايا بطَرْفٍ ساهرٍ يَقِظُ كمارعاها بطَرْفٍ ساهرٍ عُمَرُ^(٣)

ويُظَلَّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا في قتال النصارى ما أخر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وحيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويموج ديوان الأعمى التطيلي بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يموج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتيم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تيم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفَتَّحٌ بمدحة بدیعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول^(٤):

وأبْلَجَ منصورِ اللّواء إذا سَرَى أَظَلَّتْ عُقَابُ النَّصْرِ أَجْنَحَةَ النَّسْرِ
له فتكة لو زاحم الدهر تحتها لَعُدَّتْ به دَهْمُ اللَّيَالِي مِنَ الشُّقْرِ
وعزمُ يَرُدُّ الطُّودَ هَدًّا وَنَجْدَةً تَهَزُّ قُدُودَ السُّمْرِ فِي الْحُلَلِ الْحُمْرِ
تقسّمه جودُ يَفِيضُ وَهْمَةً فَمِنْ مَنْهَلٍ غَمَرٍ وَمِنْ جَبَلٍ وَعَرٍ

والمدحة على هذا النحو تولينات وتوليدات في معاني الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالي شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمة لا تبارى كجبل وعرا لا يساميه جبل في وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بدیعة في مديح زوجة تيم مريم، وكانت سيدة أدبية

(٣) بريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازي) ص ٢٥ وما بعدها.

(١) راجع القصيدة في الذخيرة ٢٥٦/٢ وانظر في ترجمة ابن الجدي المغرب ٣٤٠/١.

(٢) يشير ابن الجدي إلى تهالك أمراء الطوائف على الملهذات والخمر والفناء وكأنهم يعيشون في دور ملاء لا في دور حكم وسياسة.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة^(١):

مشهورة في الفضل قَدْماً والنَّهْيُ والجودِ شُهْرَةً غُرَّةً في أَدْهَمِ
تُولِي الأيادي عن يدِ نَزَلِ النَّدَى منها بمنزلةِ المَجِبِّ المُكْرَمِ
حمل الثناء بها القريض وإنما حمل الحديث رواية عن مسلم

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عَطِراً عطرَ الحديث المروى عن مسلم في صحيحه مبالغته منه في بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغني بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة في الفصل الثاني. وفي ابن تيفلوت والمراطين يقول ابن باجة معللاً لاسمهم «الملثمين» إذ كانوا يضعون لثاماً على وجوههم^(٢):

قومٌ إذا انتقبوا رأيت أهلةً وإذا هم سَفَرُوا رأيت بُدورا
لا يسألون عن النّوال عُفَاتَهُمْ شكرا ولا يَحْمُونَ منه نَقِيرًا^(٣)
لو أنهم مسحوا على جَدْبِ الرُّبَى بأَكْفَهُمْ نَبَتَ الأَقَاحِ نَضِيرًا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءاً من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا ييقون منه لأنفسهم أى شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزت وربت وأنبتت أزهارا وأقاها ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعيني المار ذكره بين البلاغيين في الفصل الماضي مدحة في الزبير بن عمر المثلث والى قرطبة يقول في تضايفها مخاطباً المثلثين أو المرابطين^(٤):

جُولُوا وَضُولُوا فالمناسبُ جَمِيرٌ أهلُ المفاخر والنَّدَى والنَّادِي
للقوم في كل البلادِ رياسةٌ تحكى بنى العباس في بَغْدَادِ
أضحت مجالسُهم سروجُ جيادهم إن السروجَ مجالسُ الأمجادِ

المعروف .. النقيض: الشيء المتناهي في الصغر.

(٤) انظر الأبيات في ترجمته بالمغرب ١/٢٤٧.

(١) الديوان ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) النفع ٤١٧/٣.

(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب

والصورة في البيت الأخير بديعة، ولليكى يحيى بن سهل هجاء الأندلس في المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغالبية من المديح^(١) :
 قَوْمٌ لَهُمْ شَرَفُ الْعَلَا فِي حَمِيرٍ وَإِذَا انْتَمَوْا صَنَاهَا جَعْلٌ فَهْمٌ هُمْ
 لَمَّا حَوَوْا إِحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلْتَمَوْا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب ورعاية للشعر والشعراء، وهى أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء فى مدينة «سَلا» على شاطئ المحيط، وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضى على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطى ومحمد بن سوار الأشبونى المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند النصرارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله^(٢) :

لَوْ أَنَّ رِفْقَكَ فِي الْقُلُوبِ مَرَكَّبٌ لَمْ يَلْتَقَمْ فِي الْبَحْرِ يُونُسَ حَوْتٌ
 وَلَقَدْ حَمَلَتْ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةً لَمْ يَحْتَمِلْهَا قَبْلَكَ التَّابُوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلَكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وخلف عليا فى القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام فى ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موثلا لشعراء الأندلس، وبني أحمد قصرا، هنأت به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبو عامر محمد بن الحمارة حاضرا ولم يكن أعد شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد^(٣) :

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شَبَّدْتَ وَاحِدَةً فَحُلَّ فِيهَا حُلُولُ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ^(٤)
 فَمَا كِدَارُكَ فِي الدُّنْيَا لَذَى أَمَلٍ وَلَا كِدَارُكَ فِي الْآخِرَةِ لَذَى عَمَلٍ
 ومراً بنا فى ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خصَّ القاضى أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينها كانا يواليان إغداق نوالها عليه، مما جعل لسانه

وقد دعاه أباه الحسين على بن الحمارة وراجع ترجمته فى المغرب ١٢٠/٢ وفى البقية ص ٥١٧.

(٤) الحمل: من منازل الشمس.

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى بين الهجائين.

(٢) البيتان فى ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.

(٣) انظر ترجمة أبى عامر فى النفع ١٣/٤ و ١٤٠.

يلهج بمدحها والثناء عليهما طويلاً، من مثل قوله في يحيى من مدحة طويلة^(١) :

نَدَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةٌ فِيهَا حَفِيزَةٌ كُلُّ لَيْثٍ مُخْدِرٍ^(٢)
 مثل الحسام إذا انطوى في غِمدِهِ أَلْقَى الْمَهَابَةَ فِي نَفُوسِ الْحَضَرِ
 أَزْرَى عَلَى الْبَحْرِ الْخِصْمَ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةُ أَبْحَرِ
 أَقْبَلْتُ مَرْتَادًا لَجُودِكَ إِنَّهُ صَوَّبُ الْقِمَامَةِ بِلِ زُلَالِ الْكَوْثَرِ^(٣)

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحيدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيآن وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفي سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده في حوزة الموحيدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وساء جبل الفتق، وأقام به شهراً يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوماً لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومدحه، وكان يوماً مشهوداً، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفي مقدمتهم الأصم الرواني القرطبي الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافي البُلنسي محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلي وأخيل الرندي وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي، وأنشده مدحة يقول في تضاعيفها^(٤) :

دعانا نحو وجهك طيبٌ ذَكَرٌ ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ
 وكنت كساهرٍ ليلاً طويلاً ترنح حين بُشِّرَ بالصباحِ

ورث عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاية لمدينتها الموالية له، وولى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحيدين في الأندلس، وولى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محباً للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحاً، ومن مدّاحه أبو محمد المالقي وهو يستهل مدحة قدّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمّنه تسنده سورُ الحواميم القرآنية السبع التي يرددها هي وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

(١) ابن خلكان ٢٠٤/٦.

(٢) صوب: مطر. الكوثر: نهر في الفردوس.

(٣) حمية: ليث مخدر: أسد في خدره
 (٤) انظر مدحته في المغرب ١٦٤/٢ وسنخصه
 بكلمة في الفصل التالى.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسندده وتنصره السبع المثاني وهي آيات سورة الفاتحة السبع التي يرددها كل يوم في صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينها في المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحدِيث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذى نبّهه - كما مرّ في الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ). وفي أيامه شرع في بنيان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفي سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم في الأندلس، فعبر إليه الزقاق في جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها في إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقاءه بدوره، والتقى الجمعان في الثالث من شعبان في الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفرعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزلهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، فاكتمى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور^(١):

حَيْتُكَ مَعْطَرَةَ النَّفْسِ	نَفَحَاتُ الْفَتْحِ بَأَنْدَلُسِ
فَذَرِ الْكُفَّارَ وَمَأْتَمَهُمْ	إِنْ الْإِسْلَامَ لَفَى عُرْسِ
أَمَامَ الْحَقِّ وَنَاصِرَهُ	طَهَّرْتَ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنَسِ
وَصَدَعْتَ رِذَاءَ الْكُفْرِ كَمَا	صَدَعَ الدُّيُجُورَ سَنَا قَبَسِ ^(٢)

ومضى يصور في القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سقيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويملؤهم هلعاً قائلاً إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنتها وأغار بها روح

(٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

(١) القصيدة بتامها في المعجب ص ٣٧٠

وما بعدها.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فألى عيش نكد تعس. وتوفي يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفي عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطيرة القرطبي^(١):

كذا يشرفُ الطالعُ الأسعدُ ويسمو لأملاكه السيّدُ
ویرعى أقاصى أقطاره قريبُ له عزمةٌ تبعُدُ

وأخذ الناصر يعدُّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوربا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث ربحى هذه الموقعة الصليبية أن دارت في سهل يقع إلى الشمال الشرقى من قرطبة وجنوبى قلعة رباح، ومُنَى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيراً لانتهاى دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعا على قلعة رباح وبياسه وأبدت. وتوفي الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفي، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهنا على وهن، مما هبأ للملك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط في حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شىء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها إلى المغرب والشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يبنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التى ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها^(٢):

أميرَ الهُدَى من يَدُنْ منك فإنه بِقُرْبِكَ عن صَرْفِ الحوادثِ قد أُقْصِى
عسى الله أن ينتاشَ أُنْدُلُسًا بكم ويأخذُ فيها للهدى أَخْذَ مقتَصٍ

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قُبِضَ للأندلس منذ الثلاثينيات فى القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التى استمرت نحو قرنين ونصف،

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت) ص ٦٦.

(١) انظر البيتين فى ترجمته بالمغرب ١٣٩/١ وله ترجمة فى تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها بعض شعره.

وطبيعي أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعي أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجَحَافِلُ وتُدْخَرُ أبناءُ القَنَا والقنابلُ»^(١)

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفي سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصاري الشماليين، وأرغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالي سنة ٧١٨ في مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنئه أبو عبدالله اللوشى بمثل قوله^(٢):

قصدا العرينَ ليغلبوا أسادَهُ فقضى عليهم بأسك الغلابُ

وقويت شوكة المسلمين في عهد أبي الوليد وعهد ابنه أبي عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعادته بعد موقعة بحرية عنيفة سُحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنئه بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سبّك العاملي منشدا^(٣):

فتحُ قضاء لملكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأئى يوم سعادةٍ أولأكهُ ذلتُ بعزّةٍ نصّره الصُّلبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للآداب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوي الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وفي ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزين بها قبة العرض المطلة على مجلسه في الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة^(٤):

(٣) راجع ترجمة ابن سبّك العاملي في الكتيبة

الكامنة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصب والجهام والماضي والكهام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة أبي عبدالله اللوشى في الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع في ترجمة اللوشى الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

أَبْصَرْتُ مِنْي فِي الْمَصَانِعِ قُبَّةً تَأْتِقُ فِي السَّعْدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَتَتَلَى سَطُورَ الْكُتُبِ فَوْقِي دَائِمًا وَتُعَرِّضُ مِنْ تَحْتِ سَطُورِ الْكُتَابِ

والقطعة بديعة، ولا بن جَزَى الغرناطي مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة في أبي
الحجاج من مثل قوله^(١):

إِنْ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالنَّدَى وَالْبَاسَ طَوْعُ يَدَيَّ أَبِي الْحَجَّاجِ^(٢)
مَاضِيَ الْعَزِيمَةِ وَالسِّيُوفُ كَلِيلُهُ طَلَّقَ الْمُحَيَّا وَالْخُطُوبُ دَوَاجِي
لَيْتَ الْوَعَى وَالْخَيْلُ تَرْجَى بِالْقَنَا وَالْبَيْضُ تَهْلُ مِنْ دَمِ الْأَوْدَاجِ^(٣)

وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) مكمل منشآت قصر الحمراء،
وكان ممدحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان
حفيد الغني بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) شاعرا، ولزمه ابن فَرْكُون الشاعر
يمدحه واتخذَه كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة
ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم
للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلد السلطة^(٤):

إِلَيْكَ تَبَاشِيرُ الْبَشَائِرِ مُقْبِلُهُ تَلُوحُ بِأَفَاقِ الْهُدَى مَتَهَلِّلُهُ
فَهَيَّئْتِ مَا اسْتَقْبَلَتْ يَا مَلِكَ الْهُدَى مِنْ الْعَزِّ لَا زَالَتْ سَعُودُكَ مُقْبِلُهُ
لَقَدْ قَلَّدَ الرَّحْمَنُ أَمْرَ عِبَادِهِ إِمَامًا لَهُ فِي الْعَدْلِ أَرْفَعُ مَنْزِلُهُ

ويُعدّ يوسف الثالث آخر أمراء بني الأحمر المهمين، ويفضون بعده في القرن التاسع
الهجري إلى خلافت، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا
لنتحدث عن أهم شعراء المديح في الأندلس، وهم ابن عبد ربّه وابن دراج القسطلّي وابن
عمار وابن الحداد والرّصافي وابن زمرك.

(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق في
العنق إذا قطعه الذابح لم تبقى في الإنسان حياة.
(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن
شريقة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

(١) انظر هذه القصيدة في ترجمة ابن جزي
الضافية في أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن
الأحرر إسماعيل بن يوسف في كتابه نثر فرائد
الجهان وابن الخطيب في الكتيبة الكامنة ص ٤٦.
(٢) العوالي: الرماح.

ابن عبد ربه^(١)

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، في أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ في جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضاح والخشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - في الغزل والخمر، وقلما يقع له فيها شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيها عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيها عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له في الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدٍ يا وحشةً الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لى يامنٌ كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدي

وكان سريع الغضب، وجراً عليه ذلك اشتباكه مع القلقاط الشاعر معاصره في الهجاء، ونراه في كثير من أشعاره شاباً وشيخاً ميلاً إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادراً في ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية في شبابه بمقطوعة في ذم الدنيا والتنفير منها، وسمى تلك المقطوعات المحصّات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدّ شعره في شبابه ذنوباً وآثاماً وهو إنما كان في رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقتراحاً حقيقياً للآثام، لأنه لم يكن مهتماً لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مراراً في عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يكن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

مكى بيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر
ملشور بياريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن
الناصر والعقد الفريد لابن عبدربه ونفع الطيب
للمقرى. انظر في كل ذلك الفهارس، وتاريخ الأدب
الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان
عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسى للدكتور هيكال
ص ٢٢٣.

(١) انظر في ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى
٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبيعية رقم ٣٢٧
والتيمة للتعاليى (طبعة محمى الدين عبد الحميد)
٥/٢٢ - ١٠، ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١
ومعجم الأدياء ٢١١/٤ والمطمح ص ٥١ وابن
خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص
بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحیی الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال الصاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلینا، وهو رمز واضح لروحه المسرفة في المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياتة وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى في مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفي فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بِالْمَنْذَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ شَرُفَتْ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ
فَالطَّيْرُ فِيهَا سَاكِنٌ وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدْ أُنْسُ

وتوفي المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ). ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد في المبالغة على عادة الشعراء:

إِذَا فَتَحْتَ جَنَاتِ عَدْنٍ وَأَزْلَفْتَ فَأَنْتَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ رَفِيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الثائر في إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حبان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهناه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفي الثانية يقول:

هَذِي الْفَتْوحَاتُ الَّتِي أَذَكَّتْ لَنَا فِي ظُلْمَةِ الْآفَاقِ نَوْرَ سِرَاجٍ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عبد ربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين في الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم في الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتي حصن من حصون الثوار ويهنئه ابن عبد ربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فِي غَزْوَةِ مَائَتَا حِصْنٍ ظَفَرَتْ بِهَا فِي كُلِّ حِصْنٍ غَوَاةٌ لِلْعَنَاجِيحِ^(١)
مَا كَانَ مَلِكُ سَلِيمَانَ لِيَدْرِكَهَا وَالْمُبْتَتَّى سَدٌّ يَأْجُوجٍ وَمَاجُوجٍ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين باني سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عبد ربه في حروب الناصر من سنة ٣٠٠

إلى سنة ٣٢٢ منظومة^(١) تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذي نقرؤه في حديثه عن غزوة المُنْتَلُون بجيَّان:

أَرْجَفَتِ الْقِلَاعُ وَالْحَصُونُ كَأَنَّمَا سَاوَرَهَا الْمَنُونُ^(٢)
وَأَقْبَلَتْ رَجَالُهَا وَفُودًا تَبَغَى لَدَى إِمَامِهَا السُّعُودَا
قُلُوبُهُمْ بِاخَعَةٍ بِالطَّاعَةِ قَدْ أَجْمَعُوا الدُّخُولَ فِي الْجَمَاعَةِ

وأسلوب ابن عبد ربه في المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها في دوائمه الشعر التاريخي التعليمي كمنظومة علي بن الجهم التاريخية التي ألممنا بها في كتاب العصر العباسي الثاني، وفي الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يخلق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن^(٣) دراج القسطلی

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ في بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جيَّان تسمى قسطلة دراج، وفي نسبتها إلى جده ما يدل على عراقه أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فأتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلده، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٨٥ والبيان المغرب لابن عذارى ٢/٢٧٤ و ٩/٣ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢-١٢٤ وأيضاً في مواضع مختلفة وابن خلكان ١/١٣٥ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكى وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

(١) أنظر في هذه المنظومة العقد الفريد لأبن عبدربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ وما بعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع في ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والحميدى ١٠٢ والبيمة للعالبي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتبس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلصا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبي عامر حاجب المؤيد هشام في الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة في المنصور أعجبتة فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته في نظم الشعر وهو يوفق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له في مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس في رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم في معارضتها قصيدة بديدة صور فيها امرأته متلهفة عليه في وداعه مشفقة ورضيعها في المهد وهي تتجرع مرارة الفراق وتتحب .. يقول:

ولما تدانت للوداع وقد هفاً بصبري منها أنةً وزفيرُ
تناشدني عهدَ المودة والهوى وفي المهد مبغومُ النداءِ صغيرُ^(١)
تبوأ ممنوعَ القلوب ومهدتْ له أذرعُ معطوفةً ونحورُ

ويطيل في تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى في الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه في قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد في أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبرة معلنا ولاءه ومحكما له في نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فليُسِّم للمجد من سما ويحُمي ذمار الملك والدين من حَمَي^(٢)
فهذا عظيمُ الشُّرك قد جاء خاضعا وألقى بكفِّه إليك محكما

ووفد في نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف في لامية له مثوله خانعا بين يدي المنصور والعرض العسكري الرهيب الذي أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديدة كان بحق أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياق في جليقية بأقصى الشمال الغربي

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.

(٢) ذمار الملك: ما ينبغي حياطته والدفاع عنه.

لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفي كنيستها، وتعدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفي تلك الواقعة يقول ابن دراج في مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرى دين الضلالة من رأس القواعد ممنوع الحمى أشبه^(١)
وسُمته جاحما للنار ما بقيت نفس من الكفر إلا وهى من خطبه
فأله جازيك يامنصور غزوته بسيف ماض لنصر الدين مُحْتَسِبه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستنَّ سنة أبيه في غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن في الحجابة لمدة شهرين إذ قتل في إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعاني منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدى، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزير القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سبته لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر في مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومر بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى في الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا في أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبي، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيرانُ وبُشراك قد آواك عزُّ وسلطانُ

ويقصّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجيبين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها فى رعاية منذر بن يحيى التحيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكّل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمته، مُطعمُها دُعافَ سُمِّ لمن حاربتَ ناقة^(٢)
مواصلًا بالندى ما الله واصله وقاطعا بالطبى ما الله قاطعه

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

(١) أشب: ملفن الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

فى جيش عزّ ونصرٍ أنت عُزَّتْهُ وشَمَل دينٍ ودنيا أنت جامعهُ

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:
إلى أى ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ ومن أى بحرٍ بعد بحرٍ أمتاحُ

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد بآبن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبي يقول عنه فى اليتيمة:
«كان بَصُفْع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلي سبأى حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد «بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحَوْك الكلام وتلاعبه بالمعاني وإطالته فيها» ويقول ابن بسام عنه:
«لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعاني من المتنبي، ولا حظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكي فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. وما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشاركة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هاني فى العناية باللفظ الطنان وقعقعاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبي فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضياح سنين عديدة.

ابن عمار^(١)

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محرائه قرض شيء من الشعر قرّضه له توا في أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعياً أن تهدي إلى الأندلس شاعراً فذاً من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلاً لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأديبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضحك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من أمتى»^(٢) أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس^(٣) دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به في بعض مدن الأندلس مسترفداً، لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحاً في رجل من أهل السوق ظناً منه أنه يعطيه النوال الوفير، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فاتاه بمخلّاة شعر، وفكر في دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب في بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ). أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدبر الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد أنبرى والنَّجمُ قد صرّف العنان عن السرى^(٤)

واستحسنها المعتضد وأمر له بآل وثياب ومركب وأن يُكتب في ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينها حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره في تلك الولاية وساءت السمعة عنها لعكوفها على الخمر والغناء، فأمر

خلكان ٤٢٥/٤ ونفع الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) أمتى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزّم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: السير ليلاً.

(١) انظر في ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السراء (طبع القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٢٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والخريدة ٧١/٢ وبغية الملتبس رقم ٢٢٧ وابن

المتعصّد بالتفريق بينها وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صّادح أمير المروّة وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية، وفتّرات أخرى عند غيرها، إلى أن توفى المعتصّد فاستدعاه المعتد وقربه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذّه وزيره ومستشاره.

وطمح المعتد إلى الاستيلاء على مرسية، وزنّ له ذلك ابن عمار، فأعدّ جيشاً جراراً بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراعاة له حرمة برّه القديم به كما أسلفنا، ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتماهى في إنكاره للجميل إذ سوّلت له نفسه أن يستلبها من المعتد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هوى وأعمالها، وجلس مجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهتئون ويمدحونه. واستعمل على الحصون خِساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثاً حاول المعتد بن عباد أن يردّه عن غيّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلاً من أن يطلب الصّفع هجاء وهجا زوجته الرميكية قرّة عينيه بقصيدة طارت شهرتها في الأندلس منها:

فيا عامر الخيل يا زَيْدَها منعتَ القرى وأبحتَ العيالا^(١)

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر في العواقب، وبينما كان سادراً في خمره ولهوه أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببني إخوانه وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها في يده، حينئذ انتهاز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية في وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المؤتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ). واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتد ولّى نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علّى وإلا ما نواح الحمامِ وفى وإلا ما بكاء الغمامِ

وأخذ يذكرّه بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيماً. ولم يلبث أن رغب المؤتمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة في شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

المعتمد ابنه الراضى ببال وخيل، وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظم في طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجايك - إن عافيت - أندى وأسمح وعذرك - إن عاقبت - أجلى وأوضح
ولم ينفعه عند المعتمد تذللته فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفا في قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استشارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون بيت مفرد هو قوله:

عجباً لمن أبكيه ملء مدامعى وأقول: لاشلت يمين القاتل

ويدون ريب كان ابن عمار انتهازياً وصولياً لا يرعى صداقة ولا عهداً، أما شعره ففي الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح في القلائد: «مقذف حصا القريض وجاره ومطلع شمسه وأقماره» ويقول ابن بسام: «شعره غرب وشرق، وأشأم في نغم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأغرق.. وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» وبطيل في الإشادة به، ويقول ابن الأبار في ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة في الامتياح وقصائده المصوغة في الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريده مدحته الرائية في المعتضد عباد التي ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضاً كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادُ المخضِرُّ نائلُ كَفِّهِ والجوُّ قد لَبَسَ الرِّداءَ الأَغْبَرَ^(١)
أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدى وَالَّذِى فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى^(٢)
أَيَقُنْتُ أَنِّى مِنْ ذَرَاهِ بَجْنَةٍ لِمَا سَقَانِى مِنْ نَدَاهِ الْكَوْثَرِ^(٣)
فَاحِ الثَّرَى مَتَعِطُّراً بِشَنَائِهِ حَتَّى حَسَبْنَا كُلَّ تُرْبٍ غُثْبَرَا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعانى البديعة، وما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقه لأعناق كُماتهم وشجعانهم إذ يقول:

(١) الجو قد لبس الرداء الأغبر: كناية عن
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة في أوله.
(٣) ذراه: كففه. الكوثر: نهر في الجنة. الجذب.

أَثَرَتْ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مَلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْفُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرًا
وَصَبَغَتْ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحَسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرًا

وابن عمار لا يبارى في روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكأن مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافي البديع.

ابن الحداد القيسى^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى من مدينة وادى آش في إلبيرة موطن بنى عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف في صباه - كما يقول ابن بسام - بصبة نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها في حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضاً في الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء في موطنه، ويذكر مترجموه أن له في العروض كتاب «المستنبط في علم الأعاريض المهمة عند العرب» ولا أرتاب في أنه لو وصل إلينا لكان دليلاً قوياً على ما قلته في حديثي عن الموشحات من أن الأعاريض المهمة التي يُنظم فيها والتي أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هي أعاريض العرب المهمة التي نصّ عليها الخليل في دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبيرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له في العروض كتاباً ثانياً باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتاباً ثالثاً باسم: «الامتعاظ للخليل» ردّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب في أن كتبه جميعاً تؤكد ما ذهبت إليه في فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات في الأوزان المهمة التي أشار إليها الخليل في وضعه لدوائره العروضية، وهى مرسومة بدقة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُباح التجيبى أمير المريّة التي بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقى للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوفاء للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

(١) انظر ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميراً لها في الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التي امتدت إلى أكثر من أربعين عاماً، وكان يخصص يوماً في كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بليطة الطليطلي والقزاز محمد بن عبادة الإلبيري المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركي ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذي عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله في إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ لما كانت الأيامُ عندي ذخائراً
يحبُّ ذراهَ الدهرِ عافٍ وخائفٌ جُموعاً كما وافى الحجيُّ المشاعراً^(١)
فزر مَكَّةَ مهما اقترفت مآثماً وزُرَ أفاقُهُ مهما شكوتَ مفاقرًا^(٢)
تهيمُ بمرآةِ العصورِ جلالَةً وتحسُدُ أولها عليه الأواخرًا

والصورة في البيت الثاني رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله في مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشداً.

ويا لك من نَهرٍ صَنُولٍ مُجَلْجَلٍ كأن الثرى مُزَنٌ به دائمُ الرَّعْدِ^(٣)
كأن يدَ المَلِكِ ابنِ معنٍ مُحَمَّدٍ تُفجِّرُهُ من مَنبَعِ الجودِ والرُّفْدِ^(٤)
فمن جوده ما فى الغمامة من حَيٍّ ومن نوره ما فى الغزالة من وَقْدِ^(٥)
ومنك أخذنا القول فيك جلالَةً وما طاب ماءُ الوَرْدِ إلا من الوَرْدِ

وَقَرْنُ جُلجلةِ ماءِ النهرِ فى حصاءِ الثرى بصلصلةِ الرعدِ الدائمِ فى السحابِ المطرِ فى منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور فى البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخاً له اقترَفَ ذنباً اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشيء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية مولياً وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) بسرقسطة، وكان شاعراً يقدر الشعر وأهله كما كان بطلاً مجاهداً

(١) ذراه: حماه وكنفه عاف: طالب معروف.

المطر.

(٢) مفاقر: وجوه فقر.

(٣) الرُّفْد: العطاء.

(٤) الرُّفْد: العطاء.

(٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغنى بانتصاراته على ابن ردمير حاكم أراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدور في نحر العدو:

مَسَاعِيكَ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ سِبْهَامُ وَرَأَيْكَ فِي هَامِ الضَّلَالِ حُسَامُ^(١)
وَلَمَحُكَ يَرْدَى الْقِرْنَ وَهُوَ مُدَجَّحُ وَذَكَرُكَ يَتَنَّى الْجَيْشَ وَهُوَ لُهَامُ^(٢)
كَأَنَّكَ لَا تَرْضَى الْبَسِيطَةَ مَنْزِلًا إِذَا لَمْ يُطْنَبْهُ عَلَيْكَ قَتَامُ^(٣)
كَأَنَّكَ خَلْتَ الشَّمْسَ خَوْدًا فَلَمْ يَزَلْ يَقْنَعُهَا بِالنَّقْعِ مِنْكَ لِثَامُ^(٤)

وواضح أنه أبدع في تصوير غزوات المقتدر المستمرة التي لا يزال يشنها على العدو حربا في إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا في الأرض إلا ساحات القتال وقد شُدَّتْ عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويُبْعَدُ في الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذاً منه لها لثاماً أو حجاباً. وحنَّ إلى المعتصم بن صراح، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردّد.

وَاصِلُ أَخَاكَ وَإِنْ أَتَاكَ بِجَفْوَةٍ فَخَلَوْصُ شَيْءٍ قَلَمًا يَتِمَكَّنُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مَوْجُودَةٌ إِنْ السَّرَاجُ عَلَى سَنَاهُ يُدَخِّنُ

وذكرنا في صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سماها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيها ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذَهَبَ النَّاسُ فَاَنْفَرَادَى أَنْيَسَى وَكَتَابِي مُحَدَّثِي وَجَلِيسَى
صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلَالَا وَاخْتِلَالَا وَكُلُّ خُلُقٍ بَيْتِسَى

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشرهم طويلا دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبى ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهام: الجيش الجرار.
(٣) يطنبه: يغطيه كالخيمة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحُسناء. النقع: غبار الحروب.

الأعمى التَّطِيلِي الْقَيْسِي^(١)

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة التطيلي القيسي، فهو عربي الأرومة، أما نسبته إلى تطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فولد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مرباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضيق باستيطانها، يقول عنها:

فَتَأَلَّهَ مَا اسْتَوْطَنْتُهَا قَانَعًا بِهَا وَلَكِنِّي سَيْفٌ حَوَاهُ قِرَابٌ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لا بد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلان ذلك برّم وقلق كانت تنطوى عليهما نفسه، بسبب فقداه لبصره، إذ كان ضريرا، وبكر إليه - فيما يبدو - شيء من الصلع أو بعض الشعرات البيض في رأسه، مما جعله يصرخ:

أَمَا اشْتَفْتُ مَنَى الْأَيَّامِ فِي وَطَنِي حَتَّى تَضَاقِقَ فِيمَا عَنَّا مِنْ وَطَرٍ^(٢)
وَلَا قَضَتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكْرُرَ عَلَيَّ مَا كَانَ فِي الشَّعْرِ^(٣)

وكان يلتقى في إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشاحين المجيدين في مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقى وكان يقدمه على نفسه معترفاً له بالتفوق والسبق في التوشيح كما مرُّ بنا في حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلي هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي بمرافقته في روحاته وغدواته. وليس في ديوانه مدائح لأمراء الطوائف ولا ليوسف بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ). مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت في القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفي سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتبط (مات) شابا (أو قريبا من

الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرّر: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل

والنهار.

(١) انظر في ترجمة الأعمى التطيلي وأشعاره

الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلاند ص ٢٧٣

والحريرة ٥١١/٣ وبغية الملتبس رقم ٤٢٩

والمغرب ٤٥١/٢ ونكت الهميان للصفدي ص ٤١٠

ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس في دار

الشباب) عندما به اغتبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفي ديوانه مراثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر في بعض شعره أنها كانت تُعنفه لقيوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء في إشبيلية من مثل بنى الحضرمي وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبي العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظّ به أحد من أهل الأندلس في وقته وله ينشد:

خَشِنْتَ فلم تترك وأنت منازِعُ ولِئْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ
من المَجْدِ دانِ دونه متعرِّضُ إلى الهول سباقُ عليه جَسُورُ
كفيلُ بأرواحِ الأنام موكلُ عليهم بأسرارِ الحمام خبيرُ

وهو يشير في البيت الأخير إلى مهارة أبي العلاء في الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم في أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد، ويتوسل في إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف موطنه، الذي اتخذهُ الأمير المرابطي جليسا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفي إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جنايُكَ للُعلا حَصْنُ حَصِينُ وذكرُكَ للمُنَى دُنْيَا وَدِينُ
طليعةُ جيشِكَ الظَّفَرُ المَوَاتِي وظلُّ لوائِكَ الفَتْحُ المَبِينُ
جوادُ بالديار وما حَوَتْهُ ولو أن الزمان بها ضَنِينُ
قد اهتَزَّتْ بأنعمِكَ الليالي كما تهتَزُّ بالثَمَرِ الغصونُ

وله في على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضي على هذه الشاكلة:

سما على	لأمرّة المسلمينا
صبح جلي	راق، النهي والعيونا ^(١)
سمح أبى	يرضيك شدا ولينا
كالهَندوانى	وَقَفَقُ الأمانى
وكالغمام الهَتَّان	ومِلْء عَيْنِ الزَّمانِ

ومن أكثر من مديحهم ابن حمد بن القاسم أحمد بن محمد التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بدائحه إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أَسَدٌ يَمْلَأُ الْعَرِينَ مِنَ الْبَأْسِ وَطَوْدٌ يَحْمِي مِنَ الْإِمْلَاقِ^(١)
زُهِيتْ خُطَّةُ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْ وَحَمَامُ الْفُصُونِ بِالْأَطَوَاقِ
أُرِيحِي تَرَاهُ يَهْتَزُّ لَلْبَدْرِ لَرَّ اهْتَزَّازُ الْقَضِيبِ لِلْإِرَاقِ^(٢)

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقى ورآه يطرق أبواب بني عشرة قضاة سلا رعاة الشعر لزمانه كما مررنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضي بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقى يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قُضَاتِهِ تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهِيَ سَوَامِكُ^(٣)
إِذَا سَمِعْتُ أَذْنَاهُ حَتَّى عَلَى الْعُلَا فَلَا الْجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا الْبَأْسُ تَارِكُ
رَفَعْتُمْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ أَعْلَامَ دِينِهِمْ فَأَبْصُرْ مَا فَوْكُ وَأَقْصِرْ آفَكُ^(٤)

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضي المذكور توفي سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير علي بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بني عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقى أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقى، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و ١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن علي بن القاسم حري بها أن تنسب أيضا إلى ابن بقى مثل أختها رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذي تفيأ ظلالة كما نص القدماء وتغني به في غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: منه.

(٢) طود: جبل. الإملاق: الفقر. (٣) سوامك: جمع سامك: عال.

(٤) مافوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

يوسف بن القاسم، فهي التي يمكن أن تضاف إلى التطيلي، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ^(١) المتصوف في القرن السابع الهجري، وفيها يقول:

إن جئت أرض سلا وافيك بالمكارم فتيان
هم سطور العُلا ويوسف بن القاسم عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر الذي مهّد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيها يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم في الشعر وتشارك في نقد بعض الأبيات، ومن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاتبان أبو بكر بن القصيرة وابن المُرْخِي محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلي عليها في قصيدته:

مليكة لا يوازي قَدَرُها ملكُ كالشمس تَصْغُرُ عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنْيَا ولا ترف، دِينٌ ولا قَشْفُ مُلْكٌ ولا سَرْفٌ دَرْكٌ ولا طَلْبُ
بِرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هِرَمٌ جَدٌّ ولا نَصَبٌ وِرْدٌ ولا قَرَبُ^(٢)

ويفيض التطيلي في وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى وإلى قرطبة ومحمد محرر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفي منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلي اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وزهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز».

العطاء لهذه السيدة في تناول الأيدي ولا يكلف
عناء ولا مشقة.

(١) انظر أزهار الرياض للمقرئ
٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعنى أن وُرِدَ

الرُّصَافِي مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبٍ^(١)

وُلدَ مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبٍ فِي رِصَافَةِ بِلَنَسِيَّةٍ، فَنُسِبَ إِلَيْهَا، وَقَدْ رَزَقَتْ بِهِ أَسْرَةً مُتَوَاضِعَةً، إِذْ كَانَ أَبُوهُ رَفَاءً، وَكَأَنَّمَا كَانَ مَوْلَدُهُ فِي تِلْكَ الرِّصَافَةِ بِشِيرًا بِأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ شُعْرَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ لِحَالِهَا إِذْ كَانَتْ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ سَعِيدٍ فِي تَرْجُمَتِهِ بِالْمَغْرِبِ - مَنَاطِرَ وَبَسَاتِينَ وَمِيَاهَا جَارِيَةً، وَفِي بِلَنَسِيَّةٍ يَقُولُ: «خَصَّهَا اللَّهُ بِأَحْسَنِ مَكَانٍ، وَحَفَّهَا بِالْأَنْهَارِ وَالْجَنَانِ. وَحَيْثُ خَرَجْتَ مِنْ جِهَاتِهَا لَا تَلْقَى إِلَّا مَنَازِلَهُ وَمَسَارِحَ وَمِنْ أَبْدَعِهَا وَأَشْهَرِهَا الرِّصَافَةَ». وَفِي هَذِهِ الْجَنَّةِ الْفِيحَاءِ نَشَأَ الطِّفْلُ الْمَرْهَفُ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ لَهُ أَنْ تَمَّ لَهُ نَشَأَتُهُ فِيهَا، إِذْ اضْطُرَّ أَبُوهُ - فِيهَا يَبْدُو - لِمُبَارَحَتِهَا إِلَى مَالِقَةَ وَهُوَ لَا يَزَالُ صَغِيرًا فِي نَحْوِ الثَّامِنَةِ أَوْ التَّاسِعَةِ مِنْ عَمَرِهِ، مِمَّا جَعَلَهُ - فِيهَا بَعْدَ - يَكْثَرُ - كَمَا قَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي تَرْجُمَتِهِ بِالتَّكْمِلَةِ - مِنَ الْحَنِينِ إِلَيْهَا وَيَقْصُرُ أَكْثَرَ مَنْظُومِهِ عَلَيْهَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَنْهَا:

بِلَادِي الَّتِي رِيشتُ قَوَيْدِي بِهَا فُرِيخًا وَأَوْتِنِي قَرَارَتُهَا وَكُرَا^(٢)
مِهَادِي وَلَيْنُ الْعَيْشِ فِي رَيْقِ الصَّبَا أَبِي اللَّهِ أَنْ أُنْسِيَ لَهَا أَبَدًا ذِكْرًا

وَطَارَ الطِّفْلُ صَغِيرًا مِنْ وَكْرِهِ مَعَ أَبِيهِ إِلَى عُشٍّ مُتَوَاضِعٍ فِي مَالِقَةَ، وَفِيهَا أَخَذَ أَبُوهُ يَلْقَنَهُ حِرْفَتَهُ مِنْ رَفْوِ الْمَلَابِسِ، وَفَسَحَ لَهُ مِنَ الْوَقْتِ مَا مَكَّنَهُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ إِلَى كُتَّابِ لِحْفِظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ثُمَّ الْاِخْتِلَافِ فِيهَا بَعْدَ إِلَى حُلُقَاتِ الشُّبُوحِ لِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّزُودِ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَمِنْ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ. وَتَفَتَحَتْ مَلَكَتُهُ الشَّعْرِيَّةُ مُبَكَّرَةً، إِذْ يُرَوَى أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ فِي الدِّرَاسَةِ إِلَى نَزْهَةٍ فِي مَالِقَةَ، وَارْتَجَلَ فِي تِلْكَ النِّزْهَةِ بَيْتَيْنِ أَعْجَبَ بِهِمَا الشَّيْخُ الْمُرَافِقُ، وَتَنَبَّأَ لَهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ شَاعِرَ زَمَانِهِ. وَيَقْدُمُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ أَمِيرُ الْمُؤَحِّدِينَ لَزِيَارَةِ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٥٥٦ لِلْهَجْرَةِ، وَيُسْتَدْعَى الشُّعْرَاءَ مِنْ بِلْدَانِ الْأَنْدَلُسِ لَاسْتِقْبَالِهِ فِي جَبَلِ طَارِقٍ أَوْ جَبَلِ الْفَتْحِ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ - كَمَا مَرَّ بَنَا أَمْرَ بِنَاءِ مَدِينَةِ عَلَى سَفْحِهِ، وَفِيهَا أَنْشَدَهُ شُعْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ مَدَائِحَهُمْ فِيهِ، وَمِنْ بَيْنِهِمُ الرِّصَافِي، وَهُوَ لَا يَتَجَاوَزُ عَشْرِينَ رُبْعًا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْمَعْجَبِ، وَقَصِيدَتُهُ أَوْ مَدْحَتُهُ تَصَوَّرُ شَاعِرِيَّةً

٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها في دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافي البُلَنَسِيّ مع مقدمة عن حياته وشعره.
(٢) قويدمة الطائر: الريشات في مقدم الجناح.

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشي ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوفاي

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت المهديّ الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبت في جانب جبل الفتح كالنار التي جاء في القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكثوا إني أنست نارا لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجِد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ وتمثل الرصافي الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحا قصيدته بقوله:

لو جئتَ نارَ الهُدَى من جانب الطُّورِ	قَبَسْتُ ما شئتَ من عِلْمٍ ومن نورٍ
فِيضِيَّةَ القَدَحِ من نورِ النُّبُوَّةِ أو	نور الهداية تجلو ظلمة الزُّورِ
ما زال يُقَضِّمُها التَّقْوَى بِمَوْقِدِها	صَوَامُ هاجرةٍ قَوَامُ دَيُّجُورِ ^(١)
نورٌ طوى الله زُنْدَ الكونِ منه على	سَقَطَ إلى زمن المهديّ مَذْخُورِ ^(٢)
حتى أضاءتْ من الإيمان عن قَبَسٍ	قد كان تحتَ رمادِ الكفر مكفورِ ^(٣)

ويشيد الرصافي بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهديّ إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التي طبقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تنهادى بين أيدي مجاذفها وكأنها تغرق في ماء الورد الأرجواني الصافي، وتسرع خائضة التيارات في الزقاق فيخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافي في تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد في عنان الساء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيد الخطو غير أنه جوال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسير الجبال ودكها دكاً، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به ويهدي دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله في جبل طارق والمهديّ ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبل الطور وموسى وفاته يوشع قانع الجبابة الذي تأخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافي أن يقدرها عبد المؤمن

السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.

(٣) مكفور: محجوب مستور.

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند

اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذي تقدح به النار.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمي للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاهاً، وفوجيء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمماً أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفياً بصنعة زفو الملابس. وسكن غرناطة وقتاً وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبي جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألح عليه في امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها بمجاملة لأبي جعفر. وفي بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة في المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحداً، وراجع بعض الشعراء في ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً لأدركتَ حَتْمًا في الزمان بها أمراً
ومن دون هذا غيرةٌ جاهليةٌ وإنْ هي لم تلزم فقد تلزم الحرّاً

وهي ليست غيرة جاهلية، بل هي غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره في تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجراً زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقشي الشاعر وزير ابن هشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الناصر على الموحدين بمرسية وشرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ). فأخذ يرسل إليه هدايا نفيسة، ولم ير الرصافي بدا من أن يشكره، ووالى الوقشي هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجالُ له كثر العديّدُ وأعوّزَ النَّدُّ^(١)
من معشرٍ نَجَمَ العلاءُ بهم زُهرٌ كما يتناسقُ العِقْدُ^(٢)
وكأنما فاق الأنامُ بهم نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وليدُهُمُ المنامَ على غير المجرّة أنه سُهْدُ
هيهاتَ يذهب عنك موضعه هطل الغمامُ وجَلَجَل الرُعْدُ

وظل الرصافي بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا في المديح ولكن في الطبيعة وفي بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرّماً على نفسه أن ينتجع أحداً بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

(١) الند: النظر.

(٢) نجم: نشأ. زهر جمع أزهز: النجم والكوكب.

الساطع.

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالي لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفي سنة ٥٧٢ وهو في نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مدون بأيدي الناس متنافس فيه.

ابن زَمْرَك^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين في غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقي الأندلس، وهي أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه في الفقه أبا سعيد بن لب وفي الحديث النبوى أبا البركات ابن الحاج وفي الأصول أبا علي منصور الزواوى وفي التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفي العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفي الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريجه وصنيعته، وعنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبي سالم المرينى يلتحق به في منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبى الوليد إسماعيل مدبر المؤامرة ضده، ولم يهنا إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقباً له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته في جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما في رسائل وقصائد ولأهله وحده وشكره

يكتاب ضخم ساء البقية والمدرک من كلام ابن زمرک، واطلع المقرئ على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثانى من كتابه أزهار الرياض وهى تشغل فى هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

(١) انظر فى ترجمة ابن زمرک وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكى (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فىمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضى (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤١٢/٤ وخصه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ).

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المريني عبد العزيز بتمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المريني أبا الحسن النباهي قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متهمها بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتقدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برئاسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعة فى المحاكمة متهمًا له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحلب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، وبإحدى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته ووورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبِّرَتْ له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحرر المؤرخ سفارته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوَّضَ له فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضَه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهبى به من حالق إلى غياهب السجون ويردُّ إليه بعد نحو عام ونصف حريته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمأرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته ونقروها وجدناه ينزل فيها منزلا علياً من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيداً. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقت والثياب السلطانية فهو له. ونشد المقرئ له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرك» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة في مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة في مديح ابن الخطيب ولّى نعمته وسوى قصيدة في مديح أبى سالم المرينى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مراث في الغنى بالله ومرثية في أستاذه الشريف الغرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيث الذى يهطل على العفاة دائما والباسل الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ في وصف مبانيه في قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنَاكُ الْجَمِيلُ فَإِنَّهُ يَفُوقُ عَلَى حُكْمِ السَّعُودِ الْمَبَانِيَا
بَنَيْتَ لَهُ كَفَّ الثَّرِيَا مَعِيذَةً وَيَصْبِحُ مَعْتَلًى النُّوَاسِمِ رَاقِيَا
وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَّتَتْ بِهِ وَلَمْ تَكْ فِى أَفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُودَةً له وقيمة من عيون الحساد لشدة سموه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقِيَّةُ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى في قنوات مثبتة في الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسدا تلمج المياه من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك في وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

بِهِ الْبَهُؤُ قَدْ حَازَ الْبِهَاءَ وَقَدْ غَدَا بِهِ الْقَصْرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَا
بِهِ الْمَرْمَرُ الْمَجْلُو قَدْ شَفَّ نَوْرُهُ فَيَجْلُو مِنَ الظُّلُمَاءِ مَا كَانَ دَاجِيَا
وَرَاقِصَةٌ فِي الْبَهُؤِ طَوْعَ عِنَانِهَا تَرَاوَجُ أَلْحَانَ الْقِيَانِ الْغَوَانِيَا
إِذَا مَا عَلَتْ فِي الْجَوِّ ثُمَّ تَحَدَّرَتْ تُحَلِّى بِمُرْفُضِ الْجُمَانِ النُّوَاصِيَا^(١)
يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ غَدَا مِثْلَهَا فِي الْحَسَنِ أَيْضَ صَافِيَا^(٢)
تَشَابَهَ جَارٍ لِلْعَيُونِ بِجَامِدٍ فَلَمْ أُدْرِ أَيًّا مِنْهُمَا كَانَ جَارِيَا

وتصويره للنافورة في الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

(١) مرفض الجمان: متناثر اللؤلؤ.

(٢) اللجين: الفضة.

إذ لم يعد يدري أيهما السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما في البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد في السماء وينشد:

وطامحة في الجوِّ غير مُطالَةٍ يردُّ مداها الطُّرفَ أَحْسَرَ عَانِيَا^(١)
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ويدنو لها يَدُّرُ السماءِ مناجيا
ولا عجبُ أن فاتت الشُّهْبَ بالعلَا وأن جاوزت منها المَدَى المتناها

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك في نفس القصيدة جنة العريف القائمة في مدخل القصر، وهى من عجائب البساتين والرياض في الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذى لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها في مديح الغنى بالله، وإحداها في مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبه في الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبى ربيعة وسنعرض لذلك في حديثنا عن الغزل. ويعد ابن زمرك بدون ريب آخر الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى التى رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسدين فيه دائما مثالياتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون عصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التى يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر فى الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

(١) أحسر: كليا.

الثاني الهجرى وخاصة على لسان الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرِّبَض الجنوبي بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الواقعة^(١) :

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعًا وَقَدِّمًا لِأَمْتِ الشَّعْبِ مَذْكَتٌ يَافِعًا^(٢)
فَسَأَلْتُ تُغُورَى هَلْ بِهَا الْيَوْمَ ثَغْرَةٌ أَبَادِرُهَا مُسْتَنْضَى السَّيْفِ دَارِعًا^(٣)
وَشَافِقَةً عَلَى الْأَرْضِ الْفُضَاءِ جَمَاجِمَا كَأَقْحَافِ شِرْيَانِ الْهَيْبِدِ لَوَامِعًا^(٤)
تُنَبِّئُكَ أَنِّى لَمْ أَكُنْ فِى قِرَاعِهِمْ بَوَانٍ وَأَنْى كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحّون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضرمها بنيران الحروب، فيزجّ به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحى مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحى بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى البيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صفالة وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القيسى، وساعده الأيمن سعيد بن جودى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين نارا لابن صفالة سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الواقعة سعيد بن جودى مفاخر متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورقى جيّان ورية يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينها لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل البيرة، ولسعيد بن جودى فيها قصيدة

(١) المغرب ٤٤/١.

(٢) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لابسا درع

الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رؤس. الهيد: الحنظل.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثائرين،

ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج

بين جيلين. والاستعارة واضحة.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسألة والنصارى غيرة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمر العرب عليهم سعيد بن جودي، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يحرض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية^(١) نُظم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعبلي واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدي محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بني خزيم، ومن قول العبلي في إحدى قصائده يهون من العرب وجموعهم بغرناطة:

منازلهم منهم قفارٌ بلاقع تجارى السفا فيها الرباح الزعازع^(٢)

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردّ عليه الأسدي ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له وجماعته بالويل والثبور يقول:

منازلنا معمورة لا بلاقع وقْلَعْنَا حصن من الضيم مانع
ألا فائذنوا منها قريبا بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع

وإنفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقي فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله في قرطبة، ومن مشهور قول العبلي في تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصت قناتهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل

وناقضه الأسدي بقصيدة طويلة يعيره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواء النصر معقود علينا بتأييد الإله فما يحل

وللأسدي شعر كثير يحرض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين في كورة البيرة حتى إذا خلفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية في كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربيا ومسألة ومولدين.

(١) انظر في أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.
(٢) بلاقع: مفقرة. السفا: التراب.

ومن طريف ما يُروى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠ هـ) أن نزاراً الفاطمي الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) كتب إليه كتاباً يسبّه فيه ويهجوّه، فرد عليه المستنصر المرواني: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبنّاك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدّلت بنا الحال أودارت علينا الدوائر
إذا وُلد المولود منا تهلّلت له الأرض واهتزّت إليه المنابر»

فأفحمه^(١) ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المرواني المسجون في عهد المنصور بن أبي عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسفرده بكلمة. وللمنصور بن أبي عامر^(٢):

رميّت بنفسى هول كل عظمة وخاطرت والحرُّ الكريم يخاطر
رفعنا المعالي بالعوالى بسالة وأورثناها فى القديم معافير^(٣)

وحكاياته في الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيفاً وخمسين غزوة في النصارى وإنه كان لا يخلّ في أكثر أيامه بغزوتين في السنة يشنها عليهم، ومَرَّ بنا في الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد^(٤):

بالعلم يفخرُ يوم الحفل حامله وبالعفاف غداة الجمع يزدان
وما ألان قناتى غمَزُ حادثة ولا استخفَّ بحلمى قَطُ إنسان
أمضى على الهول قدماً لا يُنهتهنى وأنثنى لسفيهى وهو غضبان

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطوى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البسر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن^(٥) حزم:

أنا الشمس فى جوِّ العلوم منيرة ولكنَّ عَيْبى أن مطلعى الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجدُّ على ما ضاع من ذكرى النهبُ

(١) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكى (طبع

القاهرة) ص ١٦٣.

(٥) الذخيرة ١/١٧٣.

(١) انظر هذه الرواية في النفع ٥٥٨/٣.

(٢) المغرب ٢٠٣/١.

(٣) العوالى: الرماح. ومعافير بفتح الميم: قبيلة

ابن أبي عامر وهى يمنية.

وهو حقاً - كان شمساً منيرة في العلوم ولم يعبه طلوع شمس من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينها إلى اليوم، وسنفرد له حديثاً في الفصل الأخير.

وتكاثر على الستة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمايتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتديبرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيلية^(١):

أَقِوْمُ عَلَى الْأَيَّامِ خَيْرَ مُقَامٍ وَأَوْقُدْ فِي الْأَعْدَاءِ شَرَّ ضِرَامٍ
وَأَنْفِقْ فِي كَسْبِ الْمُحَامِدِ مُهْجَتِي وَلَوْ كَانَ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ جِمَامِي
وَأَبْلُغْ مِنْ دُنْيَايَ نَفْسِي سَوْلَهَا وَأَضْرِبْ فِي كُلِّ الْعَلَا بِسَهَامِي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغا من دنياه كل ما يتمنى محققاً لنفسه كل ما يريد من المعالي والأمانى. وستنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم في نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول^(٢) على بن أضحى الهمداني الغرناطي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نَحْنُ الْأَهْلَةُ فِي ظِلَامِ الْجُنْدِسِ حَيْثُ احْتَلَلْنَا فَهَوَ صَدْرُ الْمَجْلِسِ
إِنْ يَذْهَبُ الدَّهْرُ الْخَوْنُ بَعْرُنَا ظِلْمًا فَلَمْ يَذْهَبْ بَعْرُ الْأَنْفَسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها تواء من الزمن دون أن تنال منها أى نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له في مسقط رأسه بجزيرة شقر يعيشون للبأس والنجدة والنضال وخوض الدماء بخيلهم المحجلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر، وفيها يقول^(٣):

مَضَاءٌ كَمَا سَلَّ الْحُسَامُ مِنَ الْغَمْدِ وَبَأْسٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزُّنْدِ
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ سُلَافَةً تَدَارُ وَلَا غَيْرُ الْأَسْنَةِ مِنْ وَرْدِ
وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرُ قَنَاتِهِمْ لِيُخَذْنَ الْعُلَا تَرَبُّ النَّدَى لِدَّةِ الْمَجْدِ
أَخَوْضُ الظُّبَا تَخْضَرُ فِي النَّعَقِ بَيْضُهَا فَأَلْقَى الْمَنَايَا الْحُمْرَ فِي الْحُلْلِ الرَّمْدِ

(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

(١) الحلة السبراء (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.

(٢) مغرب ١٠٨/٢.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليساقون المنايا حتى لكان سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا وُرد لهم سوى الأسنّة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صُدْرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خَدْن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الطُّبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكدرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التي تسحقهم سحقا.

وهذه الروح العاتية التي لا تفهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن يَنقُ^(١) المتوفى في آخر سنة ٥٤٧:

دَعْنِي أَصَادِ زَمَانِي فِي ثَقْلِيهِ	فَهَلْ سَمِعْتَ بَظْلًا غَيْرَ مُنْتَقِلٍ
وَكَلِمَا رَاحَ جَهْمًا رُحْتَ مَبْتَسِمًا	كَالْبَدْرِ يَزْدَادُ إِشْرَاقًا مَعَ الطُّفْلِ
وَلَا يَرَوْعَنَكَ إِطْرَاقِي لِحَادِثَةٍ	فَاللَّيْثُ مَكْمَنُهُ فِي الْغَيْلِ لِلْغَيْلِ
وَمَا تَأْطُرُ عَطْفُ الرُّمْحِ مِنْ خَوَرٍ	فِيهِ وَلَا أَحْمَرُ صَفْحِ السِّيفِ مِنْ خَجَلٍ
لَا غَرَوَ أَنْ عَطَلْتُ مِنْ حَلِيهَا هَمَمِي	وَهَلْ يُعِيرُ جَيْدُ الظُّبَى بِالْعَطَلِ

وهو يقول دعني أصادي الزمان وأعارضه في ثقلياته بي وأحدثه معي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومهما تجهم لي ونظر إليّ مكفهراً الوجه فسأظل مبتسماً كالبدر يزداد إشراقاً مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقاً إزاء حادثة ملمة، فإنه إطراق الليث في غيابه للوثوب على فريسته، ومهما يصبنى من أحداث فلن تتثنى إرادتي، وحتى إن ظُنَّ أنها تتثنى فهو تتثنى حد الرمح شديد المضاء، وسأظل قاطعاً نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخنجل. وإن همى لأعظم من أن تتحلى بالرمح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضى من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحلي تجرد جيد الظبي رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعُجِبَ لا يماثله عجب بمرءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقي بسهل بن مالك الأزدي الغرناطي البارِع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت

قد نالته محنة في عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغُرِبَ عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد^(١) :

وإِنِّي من عزمي وحزمي وهمتي وما رُزِقَتْهُ النفسُ من كرم الطَّبعِ
لَفِي مَنْصِبٍ تَعْلُو السَّمَاءَ سِمَاتُهُ فثَبَّتْ نُورًا فِي كَوَاكِبِهَا السَّبْعِ
تَدْرَعْتُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَأَجْلَبْتُ صُرُوفُ اللَّيَالِي كَي تَمْرُقَ لِي دِرْعِي^(٢)
فَمَا مَلَأْتُ قَلْبِي وَلَا قَبْضَتُ يَدِي وَلَا نَحْتَتُ أَصْلِي وَلَا هَضَرْتُ قَرْعِي^(٣)
فَإِنْ عَرَضَتْ لِي لَا يَفُوهَ بِهَا فَمِي وَإِنْ زَحَفَتْ لِي لَا يَضِيقُ لَهَا نَدْرَعِي^(٤)

ونفس سهل - حقًا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوئ النفس أمام صروف الدهر وهوميه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولا ين^(٥) جُزئُ المار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥ :

وَكَمْ مِنْ غَادَةٍ كَالشَّمْسِ تَبْدُو فَيُسْلِي حُسْنُهَا قَلْبَ الْحَزِينِ
غَضَضْتُ الطَّرْفَ عَنْ نَظَرِي إِلَيْهَا مَحَافِظَةً عَلَى عِرْضِي وَدِينِي

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشارقة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر في أشعارهم، وهم سعيد بن جودي وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد^(٦) بن جودي السعدي

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي من هوازن من جند

-
- (١) الذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣
وراجع في ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدح الملى ص ٦٠
(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبًا، كناية عن تكاثرها
(٣) هضرت فرعى: كسرت، كناية عن أن صروف الليالي انزاحت عنه دون أن تنال منه.
(٤) النزع: الطاقة.
(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.
(٦) انظر في ترجمة سعيد بن جودي المقبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله (راجع الفهرس) والحميدى ص ٢١٣ والبقية ص ٢٩٤ والملة السيرة لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضًا في ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس في عهد الولاة، ولّى جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوار بن حمدون المحاربى أمير عرب البيرة المنازعين للمولدين والمسألة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب في تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعراً - أهم مساعد له في حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثأر زعيم العرب قبله في تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صفالة، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بئارنا فقتلنا	منكم كل مارقٍ وعنيدٍ
قد قتلناكم بيحيى وما إن	كان حكم الإله بالمردود
فاصلطوا حرها وحر سيوف	تتلظى عليكم كالوقود
لم تزالوا تبغونها عوجاً حت	سى وردتكم للموت شر ورود

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صفالة غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسألة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثني عشر ألفاً، ويرميهم بقصيدة ملتبهة، يقول فيها:

لقيتم لنا ملمومةً مستحرةً	تجيدُ ضراب الهام تحت العوامل ^(١)
وظلت سيوف الهند تحصد جمعكم	حصاد زروع أينعت للمناجل ^(٢)
ولم يبق منكم غير عانٍ مصفدٍ	يقاد أسيراً موثقاً فى السلاسل ^(٣)
وأخر منكم هاربٌ قد تضايقت	به الأرض يعدو من جوى وبلايل ^(٤)

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فآمر العرب مكانه في زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم زياد الأبطال سبع

(١) ملمومة: كتيبة. مستحرة من استحر القتل إذا اشتد الهام: الرعب. العوامل: الرماح.
(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها.
(٣) الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة

لحصد الزرع

(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.

(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلايل: وسوس.

سنوات طوال، مثيرا فيهم الحماسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمه في تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا كمثل حصيدٍ فوق ظَهْرٍ صَعِيدٍ^(١)
وله مرثية في بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن
لقوا حتفهم في تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها
بشجاعته على شاكلة أبي دلف قائد المأمون في غزلياته. وله في جارية تسمى جيجان
سمعها بقرطبة تغني للأمير عبدالله في إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها
يقول:

سَمِعِي أَبَى أَنْ يَكُونَ الرُّوحُ فِي بَدَنِي فَاعْتَاضَ قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةُ الْحَزَنِ
أَعْطَيْتِ جِيجَانَ رُوحِي عَنْ تَذَكُّرِهَا هَذَا وَلَمْ أَرَهَا يَوْمًا وَلَمْ تَزْنِي
فَقُلْ لَجِيجَانَ يَا سُوْلِي وَيَا أَمْلِي اسْتَوْصِ خَيْرًا بِرُوحِ زَالٍ عَنْ بَدَنِ^(٢)
كَأَنْتِي وَاسْمُهَا وَالدَّمْعُ مَنْسَكُبٌ مِنْ مَقْلَتِي رَاهِبٌ صَلَّى إِلَى وَثْنٍ
ومن عجب أن قُتِلَ هذا الفارس البطل غيلةً بأيدي بعض أصحابه في شهر
ذي القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك^(٣) بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رزّين من أكابر جند
البربر، وفي أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة
وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدين بحسن سياسته وتديبره. ومروء بنا أنه
أول من أفرط في ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار
كانت أدبية تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف
والخناجر المرفهة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته
أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعني المسرح الذي كانت تغني وترقص عليه

(٣) انظر في عبد الملك بن هذيل وشعره القلائد ٥٦
والخريدة ١٠٩/٣ وما بعدها والحلة الجراء ١٠٨/٢
والغريب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب
لابن عذاري ٣٠٩/٣ والمطرب ص ٣٩.

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع.
الصعيد: وجه الأرض
(٢) حذف الياء في «استوص» في خطاب جيجان
لضرورة الوزن.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفي هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعياً أن تتفتح فيها ملكته. وتوفي أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثاً في الندى، وليثاً في العدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسراً بمطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعو فيجيبه، ويرمى ثغرة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابن تاشفين وتوفي سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحبب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم في مركب ولا ملابس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هي التي اضطرتته إلى عدم الاتساع في النوال على الشعراء لا عن شح وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للوجود في بعض شعره قائلاً:

اهدّم بناءَ البخلِ وارْقُضْ لَهُ مَنْ هَدَمَ البخلُ بنى مَجْدَهُ
لا عاش إلا جائعاً نائعاً مَنْ عاش فى أمواله وحده

وهو يدعو على البخليل الشحيح الذى يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم فى أمواله أن يعيش جائعاً ناعاً أو ظامئاً وبعبارة أخرى فقيراً بائساً. وكان موقفه كريماً من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مر بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصاً ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلداتها الجنوبية، هى شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرًا:

شَأَوْتُ آلَ رزِينِ غيرَ محتفلٍ وهم - على ما علمتم - أفضلُ الأممِ
قَوْمٌ إِذَا سُتِلُوا أَغْنَوْا وَإِنْ حَرَبُوا أَفْنَوْا وَإِنْ سُبِقُوا جَازَوْا مَدَى الْكُرَمِ^(١)
جَادُوا فَمَا يَتَعَاطَى جُودَ أَنْمَلِهِمْ مَدُّ الْبَحَارِ وَلَا هَطَالَةُ الدَّيَمِ
وَمَا ارْتَقَيْتُ إِلَى الْعُلْيَا بِلَا سَبَبٍ هِيَهَاتَ هَلْ أَحَدٌ يَسْعَى بِلَا قَدَمِ
فَمَنْ يَرْمُ جَاهِدًا إِدْرَاكَ مَنْزِلَتِي فَلْيَحْكُنِي فِي النَّدَى وَالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزین إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعدوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أَنَا مَلِكُ تَجَمُّعَتْ فِيَّ خَمْسٌ كُلُّهَا لِلْأَنَامِ مُخَيِّ مُمَيِّتٌ
هِيَ ذَهْنٌ وَحَكْمَةٌ وَمَضَاءٌ وَكَلَامٌ فِي وَقْتِهِ وَسَكُوتٌ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهم المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذما شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزاء عليهم وتلبهم بينما هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبه وما تسله من ألحاظها بينما لا يخشى السيوف في القتال ولا يرهبها، يقول:

إِذَا سَلَّتْ الْأَلْحَاطُ سَيْفًا خَشِيَتْهُ وَفِي الْحَرْبِ لَا أَخْشَى وَلَا أَتَوَقَّعُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبيل والسيم الكريمة.

يوسف الثالث^(١)

حفيد الغنى بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حَقَّقَهُ الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرئ في نفحه - كما جاء في مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مرات في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيراً به وتصفو بينها العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف في بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله في قصيدة حماسية من قصائده:

راق الزمانُ وجاءنا ميقَاتُهُ بِالضَّحْوَةِ الْغُرَاءِ مِنْ أَيَّامِهِ^(١)
نَأْتُمُ فِي حَرْبِ الصَّلِيبِ وَحَزْبِهِ بِشَفِيعِ كُلِّ مَوْحِدٍ وَإِمَامِهِ
مُسْتَأْصِلِي بَيْعِ الْعُدَاةِ مُهْتَمِي مَا صَانَ فِيهَا الْكُفْرُ مِنْ أَصْنَامِهِ^(٢)
وَاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَكَفِّلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعْهُودِ مِنْ إِنْغَامِهِ

ويوسف يعلن أنه انتصر في ضحوة أضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى في جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمماً على استئصال يبيعهم أو كنائسهم وتهتيم أو تهشيم أصنامهم مستعيناً بعون الله في نصره عليهم وسحقهم سحقاً ذريعاً. وطبعي أن يكتظ ديوان يوسف بحُمم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لَقَدْ عَلِمْتُ نَصْرُ بَأْنِي كَفِيلُهَا إِذَا هَاجَتِ الْهَيْجَاءُ وَاحْمَرَّتِ الْأَرْضُ^(٣)
أَدَافِعُ عَنْهُمْ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا وَأُحْمَى جِمَاهَا أَنْ يُنَالَ لَهَا عِرْضُ
بَنَّا سَاعَةَ الْهَيْجَاءِ يَحْمِي وَطِيسُهَا وَتُهْتَكُ أَسْتَارُ الْبُغَاةِ إِذَا انْقَضَوْا
إِلَى عِتْرَةِ الْأَنْصَارِ تُعْزَى أَرْوَمَتِي إِلَى مَعَشِرٍ فِي الذِّكْرِ حُبُّهُمْ قَرَضُ

وهو يقول إن بنى نصر من أسرته يعلمون بلاءه في الحرب وأنه حين يحمى وطيستها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتاً بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عباد، ومعروف أن عداؤه في السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

أَلَسْتُ سَلِيلَ الصَّيْدِ مِنْ آلِ جَمِيرٍ وَخَيْرِ مُلُوكِ الْأَرْضِ قَوْمًا وَلَا فَخْرُ^(٤)

الأرض: كناية عن كثرة الدماء.

(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

(١) الضحوة: الضحى.

(٢) بيع: كنائس مهتمى: محطى.

(٣) كفيل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احرار

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب لنا العِزَّةُ القَعَسَاءُ والغُرُّ الغُرُّ^(١)
لنا الهَضْبَةُ السَّمَاءُ ساميةٌ الذُّرَى لنا الرَّايَةُ الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ^(٢)
مكارمُ أَعْيَتْ كُلُّ من رام حَصْرَها وهيهاتَ ما للشُّهْبِ فى أَفْقِها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطَّوْل من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهي مكارم يعزَّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار في الفخر والحماسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهى طبيعية ممن ينشأ مثله في الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي، ومرَّ بنا - في كتابنا عن العصر الجاهلي - أنه كان في الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعناتٍ خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلونه كما يسلون سيوفهم في حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق في العصر الأموي ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُميت بالنقائض. وظل التهاجى مضطرباً بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شبل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر في الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفي مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائين المبكرين عبد الله^(٣) بن الشمر المتفنن في العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان^(٤) عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغل ذلك يوماً - وهو في مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التي كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

(١) القعساء: الوطيدة. الغرر: الأعمال العظيمة. الأوائل في الفصل الثاني.
(٢) الغر: المشهورة.
(٣) الشاء: السامقة: يهفو: يخفق.
(٤) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت).
ص ٦٥ - ٦٦.

(٣) مرت مصادر ابن الشمر في الحديث عن علوم

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة في يده أمر أن يُدعى له بن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا يجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولها من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخَامِرُ مَا تَتَفَكُّ تَأْتِي بِفُضْحَةٍ دَعَوْتَ ابْنَ مَتَّى وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَا
قَفَاكَ قَفَا جَحْشٍ وَوَجْهُكَ مَظْلَمٌ وَعَقْلُكَ مَا يَسْوَى مِنَ الْبَعْرِ دِرْهَمَا

فتألب الفقهاء على يُخَامِرُ وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارَت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايتِهِ. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن^(١) بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعراً رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراس الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقرّبه ويجزل له النوال، وأسرته النصارى في إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوه شامتا به في قصيدة طويلة:

تَصَيَّحَ أَبَا حَفْصٍ عَلَى أُسْرِ هَاشِمٍ ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ وَخَمْسَ رَوَاطِمٍ^(٢)
وَبُحَّ بِالَّذِي قَدْ كُنْتَ تُخْفِيهِ خُفْيَةً فَقَدْ قَطَعَ الرَّحْمَنُ دَوْلَةَ هَاشِمٍ

وافتنى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حبائل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفى سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين في عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلقاط^(٣) محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسلّ لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

مَا يَرْتَجِي الْعَاقِلُ فِي مُدَّةٍ الرَّجُلُ فِيهَا مَوْضِعُ الرَّاسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجّس منه شرا، وتهاجيا وأقذع كل منهما في هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر في الأندلس.

(٣) انظر في القلقاط وشعره الزبيدي ٣٠١

والحميدى ٩١ وبقية الملتبس ١٣٤ والمغرب

١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباء الرواة

٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(١) انظر في ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره

الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس في

مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة

للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبقية

الملتبس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد في ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بدمه، من بينهم الرمادي: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفي عادت إليه حريته، واشتهر له قوله في طفل حلق أهله شعره خوفاً عليه من الحسد^(١):

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحاً خيفةً منهم عليه وشُحاً
كان قبل الحلاقِ ليلاً وصُبْحاً فمَحَوْا ليله وأبقوه صُبْحاً

ونغضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام غنى في الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون باباً سواه وفي مقدمتهم السُميسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب^(٢) الملقب بالحجّام شاعر قلعة رباح غربي طليطلة وقد سقطت في حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو عليّة القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التي تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناسِ أكثرُهُم فساداً وليس لهم لصالحَةٍ نهوضُ
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ سِراً تسالمتنا ويؤذينا البُعوضُ

وقوله:

فيا للملِكِ ليس يَرَى مكاني وقد كُجِلْتُ لواحظَه بنوري
كذا المِسْوَكَ مطرَحاً هواناً وقد أبقى جِلاءً في الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيراً، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجذب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالا وإجداً، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر^(٣) الأصيلي، وهو كثير الذم والهجاء للناس

ورايات المبرزين ص ٨٢.

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) انظر في أبي عامر الأصيلي وشعره الذخيرة

(٢) راجع في أبي تمام غالب الحجّام وشعره

٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والحريدة ٣٠٨/٢.

الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعمَرونَ دورًا ومالي في بلادِ الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رِعاغًا كبارَهُمُ إذ اخْتَبَروا صغارُ

ونسبت لعهد أمراء الطوائف أكبر^(١) معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة البيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتباً له يهودياً يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النغريّة، وكان داهية خبيثاً درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفي عهده أصبح ابن النغريّة رئيس وزراءه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالف باديس في الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حامياً لليهود في الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدرى شيئاً من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجاً من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن في أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعد ابنه يوسف ليخلفه في وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفي مقدمتهم السُميسر وأبو الحسن يوسف بن الجدد القائل في سخط وغضب^(٢):

تحكمت اليهودُ على الفُروج وتاهتْ بالبغالِ وبالسُروج
وقامتْ دولةُ الأندالِ فينا وصار الحكمُ فينا للعلوج^(٣)
فقل للأعور الدَّجَالِ هذا زمانُك إن عزمْتَ على الخروج

الرد على ابن النغريّة لابن حزم (طبع القاهرة)
ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٥٦٢/٢

(٣) العلوج: جمع علج: النقط.

(١) انظر في هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٢٦٤/٣ والإحاطة ٤٣٩/١ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة

وأصبح المسلمون في غرناطة، يوجون بالحنق والغيط من يوسف واليهود الذين اعتصروا طبيات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيري الذي سنترجم له بين الزهاد يدهم بقصيدة حماسية ملتبهة، بل بالشعلة الشعرية المضطربة شواطا ونارا حامية، وإنه ليهتف في مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين^(١):

أَلَا قُلْ لَصَنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينَ بِدُورِ النَّدِيِّ وَأُسْدِ الْعَرِينِ^(٢)
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ
تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَاتَّخَوْا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ^(٣)
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازَوْا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوالين يحملون أخراجهم على ظهورهم في صغار وذل وهوان باحثين في المزابيل عن خرق من الثياب ملوثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنيا حتى يتنبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفناه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً وَضَحَّ بِهِ فَهَوُ كَيْشُ ثَمِينٍ
وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْثُونَ
وَقَدْ نَكَّتُوا عَهْدَنَا عَنْدهُمْ فَكَيْفَ تُلَامُ عَلَى النَّاكثِينَ

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها في الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صمادح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا في أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفي مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسوّر كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

(١) ديوان الإلبيري (طبع مدريد) ص ١٥١.

ومأواه.

(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد.

(٣) انتخوا: تعاضوا وتكبروا.

لهم جليلة نواياه مصممين على قتله، فاختبأ منهم في بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين في عصر المرابطين عبد الله^(١) بن سارة الشنتريني المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تُرْبِي على حَصَى الدُّهْنَاء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذي اتَّخَذَهُ في الذخيرة، وهو أن ينحى عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقترًا عليه في الرزق، فتنقل طويلا في بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوراقة، وفيها يقول ذامًا هاجيا:

أما الوراقةُ فهى أنكدُ حِرْفَةٍ أغصانها وثمارها الحِرْمَانُ
شبهتُ صاحبها بإبرة خائِطٍ تكسو العُراةَ وجِسمُها عريانُ

ويكثر في زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجيا، ومثله ابن خفاجة وابن البني وفيهم يقول مخاطبا لهم:

أهل الرِّياءِ لبستمُ ناموسكم كالذئبِ أدلجَ في الظلامِ العاتمِ
فملكتمُ الدنيا بمذهبِ مالكٍ وقسمتمُ الأموالَ بآبِنِ القاسمِ
وركبتُمُ شُهَبَ الدوابِّ بأشهبٍ وبأصغِرِ صُبغتُ لكمُ فى العالمِ

وهو يتهمهم بالمرءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمتهم المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. ومن عنف بالفقهاء في الهجاء الأبيض^(٢) محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالةِ جاهدا ووزيره المشهورُ كَلْبُ النَّارِ
ما زال يأخذُ سَجْدَةً فى سجدةٍ بين الكُئُوسِ ونَعْمَةِ الأوتارِ

(٢) راجع في ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفع الطبيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والحريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والغبية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

فإذا اعتراه السُّهُو سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَةُ الْمِزْمَارِ

وكانت في الأبيض جراحة شديدة، وأفحش في بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرّعه ويوجعه باللوم قال له هازئاً به: إنني لم أر أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلمها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حمق منه ما بعده حمق. وكان معاصره اليكّي يهجو المرابطين مثله، غير أنه لم يبلغ مبلغه في الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبي العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة في مهنة الطب كما يقول المقري - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن^(١) باجة:

يا مملِك الموت وابن زُهر جاوزتما الحدَّ والنهائِة
ترفقاً بالوَرَى قليلاً في واحدٍ منكما الكِفائِة

وهي في رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقري، مما جعله يعقّب لأبي العلاء بن زهر ببيتين يصف فيها شخصاً بالزندقة وأنه لا بد أن يصلب والجذع والرمح حاضراً، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا في عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى^(٢) المخزومي أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سعيد في المغرب هجاء كثيراً، من ذلك قوله في إحدى مقطوعاته يهجو قوماً لقوه لقاء قبيحا:

وأنتم سَنَنْتُمْ كُلَّ مُحَدِّثٍ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحاقاً لآخر

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبة وكل مذمة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزي سوءاً وعاراً بلعنات كل من في المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون^(٣) - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلاً:

ألا قُلْ لِنَزْهونَةٍ مالها تجرُّ من التَّيِّهِ أَذْيالُها

المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.

(١) نفح ٤٣٤/٣ وما بعدها.

(٢) تأتي في الفصل التالي مراجع نزهون.

(٣) انظر في ترجمة الأعمى المخزومي وشعره.

فردت عليه بهجاء موجه أخرسه. وكما هجا تلميذته التي كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابناً له بقوله:

الحقُّ أبلجُ لستَ أنتَ وحقُّ مَنْ أحيا بك الأجلَّافَ مِنَّ يُفْلِحُ^(١)
لا تهتدى بفضيلة لا ترعوى بملامة لا أنت ممن يصلح
يزداد عقلك ما كبرت تناقصا وتلج في صمم إذا ما تنصح^(٢)

وبدلاً من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه في مطلع ترجمته نقلاً عن الحجارى: «بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأداة، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبره ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله في دار تلطفاً، وقال للغلام له: أسأل في الموضع الذى نزل فيه المخزومى متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهيم بالرحيل زادا وينظر له في دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومى فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتاً منها:

لا ترجون بنى سعيد للندى فالظل أفيد منهم للسائل
قوم مصيبتهم بطلعة وافد وسرورهم أبداً بخيبة راحل

ومن كبار الهجائين في عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد^(٣) بن الصفار الأعمى القرطبي المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع في الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازى كاتب أبى العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التى أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة فى مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجياً له بقوله:

وإن ينازحك فى المنصور ذو نسب فنجل نوح ثوى فى قسمة العطب
وإن يقل أنا عم فالجواب له عم النبى بلا شك أبو لهب

المغرب ١١٧/١ واختصار القدح المعلى ص ٢٠٣
والتكملة ص ٣١٣.

(١) أبلج: مضىء.

(٢) تلج: تنمادى.

(٣) انظر فى ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرّض على قتله، وفرّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتبا شهريا إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر الهجاء يتطاير في إمارة بنى الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البسطى محمد بن عبد الكريم القيسى بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبّ كثيرا من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضى بلدته^(١):

تَبَا لِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضَلٍ تَبَا لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيُعْتَدِي
إِذْ غَيَّرَ الْأَحْكَامَ عَمَّا أَصْلَتْ تَغْيِيرَ جَبَّارٍ عِنْدِ مُعْتَدِي

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء أربعة من كبار الهجائيين في الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُمَيْسِر واليَكِّي وعلى بن حَزْمُون.

يحيى^(٢) الغزال

هو يحيى بن الحكم البكرى الجياني المعروف باسم الغزال، وُلد حوالى سنة ١٥٦ للهجرة وتوفى حوالى سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أَدْرَكْتُ بِالْمِصْرِ مَلُوكًا أَرْبَعَةً وَخَامِسًا هَذَا الَّذِي نَحْنُ مَعَهُ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِبَ بالغزال وهو من رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدبا وعلما. ويبدو أنه كان يتولى أحيانا بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشتري

٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤. والحميدى رقم ٨٨٧
والبغية للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢
والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذارى
٩٣/٢ والنفح ٢٥٤/٢ واليتيمة للثعالبي ٥٦/٢
وكتاب القضاة للخشى ص ٨٣. ونشر ديوانه
د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

(١) انظر كتاب البسطى آخر شعراء الأندلس
للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت)
ص ١٩٤.

(٢) راجع فى ترجمة يحيى الغزال المقتبس:
الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد
(تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣،

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتبويل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربي الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح في السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش في غير قليل من لين العيش وأنه كان في أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب في أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أرى هاهنا من الناس إلا ثعلباً يطلبُ الدجاجَ وذيباً
أو شبيهاً بالقطِّ ألقى بعينيه - إلى فأرةٍ يريدُ الوثوبا

فالناس بين ثعلب ماکر وذئب مفترس وقطٌّ ينتظر فرصة من فأرة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يخامر بن عثمان الجذامي الجباني موطنه، ولأه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله في شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أدائه على نحو ما كلف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ له كلفتنى غيرَ صنعتي كما قلّدا فضلَ القضاء يُخامرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لي سأفضحُ ما قد كان منك مُغائرا
فقلتُ له: رأسُ الفُضوح إقامة علينا كذا من غيرِ عِلْمٍ مُكابرا
وخَبْطُك في دينِ الإله على عَمَى خباطة سكرانٍ تكلم سادرا^(١)
فلن يحمل الصخرَ الذبابُ ولن ترى الـ سلاحِف يُزجِنُ السّفين مَواخرا^(٢)

(١) سادرا: غير مبال.

(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخط في قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله في حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التي لا يؤتاها إلا أولو العزم بذباب يُطلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهون منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلي الخصي تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤدي الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدمت يداه:

أيا لا هيا في القصر قرب المقابر يرى كل يوم واردا غير صادر
تراهم فتلهم بالشراب وبعض ما تلذ به من نقر تلك المزاهر^(١)
سترحل عن هذا وإنك قادم - وما أنت في شك - على غير غافر

وكان الأمير عبد الرحمن ولّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ في سنة ٢٣٦ يفكر في صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه في اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونّبّه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة في معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقبا له بأبى الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أغنى أبا الفتح عما كان يأمله حفيرة حفرت بين المقابير
فصار فيها كاشقى العالمين وإن لفوه بالنفح في مسك وكافور

وأمر عبد الرحمن بإزالة زرياب مغنيه في قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفته أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجع في زمنه.

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

السَّمِيسِر (١)

هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام الشعراء في زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقدح، وكأنما تخصص بالقدح والهجو في أهل زمنه، حتى ليكتب في هجائهم كتابا في مجلدات سماه «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجي منذ سنة ٤٦٧ وكان السمسير ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين في ملاهيهم بين الكاس والطاس متنازعين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصرى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى يدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوك وقل لهم	ماذا الذى أحدثتم
أسلمتم الإسلام فى	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبى شققتم

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم في يده، بل إنهم ليستعدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير في حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمر غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادى، فعبد الله بن بلقين غارق في تشييد قلعة يتحصن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يبنى على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير

فهو - في رأيه - كدودة القز لا تزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقلا تلفه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمر وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب

١٠٠/٢

(١) انظر في ترجمة السمسير وشعره الذخيرة

٨٨٢/١ وما بعدها، ونفع الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١،

٤١٢، ١٠٨/٤ والحמידى ص ١٩٣ والخريدة

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ أبا البريةَ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا
أَنَّ الْبَرَابِرَ نَسْلُ مَنْكَ قَالَ إِذَنْ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَارَعَمُوا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعدده الأمير عبد الله بسفك دمه، ففر إلى المعتصم بن ضُهادح أمير المروية مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السميسر سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رَأَيْتُ بَنِي آدَمَ لَيْسَ فِي جَمْعِهِمْ مِنْهُ إِلَّا الصُّورُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ جَمِيعَ الْأَنْامِ كَذَلِكَ صِرْتُ كَطَيْرِ حَذِرٍ
فَمَهْمَا بَدَأَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ أَقُولُ أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَشَرِ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لا يزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع في شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيز منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أَنَا أَحَبُّ الشَّعْرِ لَكُنْنِي أُبْغِضُ أَهْلَ الشَّعْرِ بِالْفِطْرَةِ
فَلَسْتُ تَلْقَى رَجُلًا شَاعِرًا إِلَّا وَفِيهِ خَلَّةٌ تُكْرَهُ
وَالْعُجْبُ وَالنُّوْكَ إِلَى الْجَهْلِ فِي أَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَعَ النُّذْرَةِ

وطبعي أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ في وصمهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة في الزهد والقناعة والحياة والموت.

الْيَكِّي^(١)

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكبي من قرية يَكَّةَ شمالي مُرْسِيَّةَ، قال فيه الجباري: «هو ابن رومي عصرنا وحُطِيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء» عاش في زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفي حوالى سنة ٥٦٠

(١) ٥٨٠/٣ والضي في البغية ص ١٨٨.

(١) انظر في ترجمة اليكبي وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢٦٦/٢ والحريدة

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا المثلثين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لَمَّا حَوَّوْا إِحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحِيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَثَّمُوا
 فِي مَدْحَةٍ بَلَغَ بِهَا غَايَةَ رِضَاهُمْ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ طَبْعُهُ وَمَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَجَاءِ الْمَقْدَعِ،
 فَهَجَاهُمْ وَقَدَحَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَلِثَامِهِمْ رَامِيًا لَهُم بِالذَّنَاءَةِ وَنَقْصِ الْعِفَافِ قَائِلًا:
 فِي كُلِّ مَنْ رُبِطَ اللَّثَامُ ذَنَاءَةٌ وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كَيَّوَانٍ^(١)
 لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عَفَّةٍ وَاطْلُبْنَ شِعَاعَ النَّارِ فِي الْغُدْرَانِ

وفي نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسي - أن المثلثين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها في برائن النصارى الشاليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلزلة التي سحقوهم فيها سحقا ببعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يَا أَهْلَ فَاسٍ لَقَدْ سَاءَتْ ضَمَائِرُكُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيكُمْ الْآرَاءُ مَتَّفَقَةً
 وَرَبَّمَا اجْتَمَعَتْ فِي بَعْضِ سَادَتِكُمْ نِقَائِصُ أَصْبَحْتُ فِي النَّاسِ مُفْتَرَقَةً

ويتبادى في البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصال عشرة ذميمة للفقير وزوجته، وما وصم به قاضى بلده: مرسية من جوره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يَطَالِبُهُ الْإِيْتَامُ فِي جُلِّ مَالِهِمْ وَيَطْلِبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدٍ^(٢)

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدرك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر في شيء، إذ يصبح سبًا وقذفًا مذمومًا. وربما كان أخف ما هجا به أهل فاس قوله:

قَصَدْتُ جِلَّةَ فَاسٍ أَسْتَرْزُقُ اللَّهَ فِيهِمْ^(٣)
 فَمَا تَيْسَرُ مِنْهُمْ دَفَعْتُهُ لِبَنِيهِمْ

(٢) جل: معظم.

(٣) جلة: أجلاء.

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس

وشؤم.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئا من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله في بعض مهجويته:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقْتَ به متذكِّراً من قبل أن تُنسى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظِّلُ منه ينجسُ الشَّمْسُ

وكأنه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو في الإقذاع والإيلام. وفي أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد في المغرب في نسبة موشح له وقال إنه لابن المريني ويروى لليكي مما يدل على أنه شارك في نظم الموشحات.

على^(١) بن حزمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المريّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان شاعرا مقلقا ذاكرا للأدب والتواريخ أحد بواقع^(٢) الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجي». ومر بنا في حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدي بعد قفوله من غزوة الأرك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه وفد على المستنصر الموحدي (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) بمراكش مادحا له ومتظلما من واليه المجريطي على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالي وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفي المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالي واشتد أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها في غير هذا الموضع، وجره هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعما أنه فرّ في إحدى المواقع مع النصارى قائلا:

يودُّ بأن لو كان في بطن أمِّه جَنِيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو

(١) ٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.
(٢) بواق جمع باقعة: داهية.

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب

ثَقِيلٌ وَلَكِنْ عَقْلُهُ مِثْلُ رِيْشَةٍ تَطِيرُ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي مَهْمَةٍ دَوٍّ^(١)
 تَمِيلُ بِشِدْقِيهِ إِلَى الْأَرْضِ لِحَيَّةٍ تَنْظُرُ بِهَا مَاءٌ يَفْرَغُ مِنْ دَلْوٍ
 وَقَدْ حَدَّثُوا عَنْهُ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ وَلَكِنْ مِثْلَى لَا يَرَوِي وَلَا يَرَوِي

وهو تجنّ على هذا القائد الذى كان مشهورا فى قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو برىء منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التى لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهى مبالغة فى هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبى سعيد بن جامع، فقصّد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقبل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ بَيِّنٍ وَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى دَارٍ بِيَابِينَ
 وَمِنْ زِيَارَةِ أَرْبَابٍ بِلا عَدَدٍ لَا يَمْلِكُونَ حَيَاتِي لَا وَلَا حَيِّنِي^(٢)
 إِنِّي وَجَدْتَهُمْ لَمَّا رَجَوْتُهُمْ كَالرَّيْحِ تَطْلُبُهَا مَا بَيْنَ كَفَيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبا وغيتا مدرارا وممدّحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء فى ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصّ منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمَرْأَةِ وَجْهِي فَخِلْتُهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِوِ
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي فَإِنَّ بِهَا مَا قَدْ أَرَدْتَ مِنَ الْهَجْوِ
 كَأَنَّ عَلَى الْأَزْوَارِ مِنِّي عَوْرَةً تَتَادَى الْوَرَى غَضُوا وَلَا تَنْظُرُوا نَحْوِي
 فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تَنْتَبِهُ الْأَرْضُ لَمْ أَكُنْ مِنَ الرَّائِقِ الْبَاهِي وَلَا الطَّيِّبِ الْحُلُوِ

وفى الحق أنه كانت فى ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هى التى دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادى الماجنة المفضحة فى كثير من شعره، وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم فى عروضها ورومها موشحة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. وينهى المراكشى حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذىء المقلّذ.

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوٍّ: واسع. (٢) حيني: هلاكى وموتى.

الشعراء والشعر التعليمي

ذكرنا في كتاب العصر^(١) العباسي الأول أن رقى الحياة العقلية في هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمي، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية في ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينها تتحد في الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة في هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة في تاريخ ملوك الفرس وفي الفقه وأحكام الصوم والزكاة. ومن نظم في هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزاري، إذ نظم في علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعي فيه قصيدة في ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم في هذا الفن التعليمي، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعل بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين في هذا الفن الجديد - إن لم يكن أولهم السابق إليه - الشاعر يحيى الغزال الذي مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم في فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماهم مستقصيا محسنا^(٢). وملتقى بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفي في حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم^(٣)، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخمة^(٤) وفي ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة في الطول.

القاهرة) ١/١٤٤.

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٠ وما بعدها

(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار

(٢) نفع الطيب ١/٢٨٢.

الكتاب العربي بلبنان) ص ١٧٩.

(٣) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس (طبع

وإذا استمررنا في تتبع الشعر التاريخي التعليمي وأراجيزه التقينا بأرجوزة^(١) ابن عبد ربه التي سَجِّلَ فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهي في نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سَبْحَانَ مَنْ لَمْ تَحْوِهِ أَقْطَارُ وَلَمْ تَكُنْ تَدْرُكُهُ الْأَبْصَارُ
وَمَنْ عَنَّتْ لَوَجْهَهُ الْوُجُوهُ فَمَا لَهُ نِدٌّ وَلَا شَبِيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التي أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حَبَاتِهِ قد تناثرت وعَمَّتِ الفتن في كل الأنحاء وكثر الثوار في كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرآق ويأخذ في منازل نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدٍ وهم صاغرون، ونكتفي من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة^(٢) السنة الأولى من غزوات الناصر وهي سنة ثلاثمائة، وكان قد أعد جيشا ضخما خرج به من قرطبة في السابع من شهر رمضان في تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جِيَّانَ واتجه إلى حصن المُنْتِلُونِ وثاره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمتان وثاره عبيد الله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التي كانت موالية لعمر بن حفصون في جِيَّانِ ثم في البُشَرَاتِ وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون في إقليم البيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعاقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهي فتوح لم يسمع بمثلا - كما يقول ابن حيان - لملك واحد من ملوك الأرض في غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه في أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خائعين:

وَجَمَعَ الْعُدَّةَ وَالْعَدِيدَا وَكَثَّفَ الْأَجْنَادَ وَالْحُشُودَا
ثُمَّ انْتَحَى جِيَّانَ فِي غَزَاتِهِ بَعْسُكَرٍ يَسْعُرُ مِنْ حُمَاتِهِ^(٣)

المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسر: يتقد. حماة: جمع حام.

(١) انظر الأرجوزة في العقد الفريد ٥٠٠/٤

وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة في الجزء الخامس من

فأذعنت مُراقَها سِراعا وأقيلت حُصونها تَداعي
 وافتتح الحصونَ حصْناً حصْناً وأوسع الناسَ جميعاً أمناً
 ثم انتحى من فُورِهِ إلبيره وهى بكل آفةٍ مشهوره
 ولم يدع من جَنَها مَريداً^(١) بها ولا من إنسا عَنيدا
 إلا كسأه الذلُّ والصُّغارا وعُمه وأهلَه دمارا
 وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ وقد شفاه الله من عُدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التي ينبغي أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التي ليس لها مثيل في تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت في أرجوزة من الشعر التاريخي التعليمي الذي تفتقر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائي المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة في الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل في نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله في مدحه للناصر^(٢):

فى نصف شَهرٍ تركتَ الأرضَ ساكنةً من بعد ما كان فيها الجَورُ قد ماجا
 لما رأوا حَومةَ الشَّاهين فوقهم كانوا بُغائاً حَوالِها ودُراجاً^(٣)
 ويقول في وصف عدله في رعيته:

أحياء لنا العدلُ بعد مِيتَتِهِ وردَّ روحَ الحياة فى جَسَدِهِ

ونلتقى في عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمي التاريخي، ونقصد أبا طالب عبد الجبار الملقب بالمتمنبي، وستفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبي الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة في نسب الرسول ﷺ سهاها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده في هذا اللون التاريخي من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذي ستأتى ترجمته في الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سهاها «رَقَمَ الحُلل في نظم الدول» وهى تاريخ شعري للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيدين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمرء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضي، ويسوق ابن الخطيب في تضاعيفها نثراً لتوضيح الأبيات، وفي كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضى وما كان

(١) مريدا: خبيثا شريرا.

(٢) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البغاث والدراج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

(٣) الجزء الخامس من المقتبس ص ٦٢.

من ثورة الفقهاء وأهل الرضى عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه في حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد في الثورة عليه عهدا ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيرا إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام^(١):

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما قام بها ابنُه المسمَى الحكمَا
واستشعرَ الثورةَ فيها وانقبضُ مستوحشا كاللَّيْثِ أَقْعَى وَرَبَضُ^(٢)
حتى إذا فُرِصَتُهُ لاحَتْ نَفْضُ فأفحشَ الوقعةَ في أهل الرِّبْضِ
وكان جبَّارا بعيدَ الهمةِ لم يَرْعَ من إلٍ بها أو ذُمَّ^(٣)

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمي إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهي أكثر من أن تحصى في الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علما دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة في العلم الذي نظمته مهما شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فيرُّه الشاطبي الذي مر ذكره بين القراء في الفصل الثاني، وقد سبأها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدَّتْها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وقد شرحت مرارا، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبي إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سبأها: «عقد اللآلى في القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها^(٤) من الشهرة والذبول. ودوت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكي لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطأ لمالك وسبأه: «التمهيد لما في الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا» ولعل ذلك ما جعل الشاطبي ينظم قصيدة في

(١) الإحاطة ٤٨٢/١

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

(٢) الليث: الأسد. أقعى: جلس على إلتيه

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن

حجر ٧٣/٥

ونصب ساقيه وفخذه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.

خمسائة بيت تحيط علماً بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات في العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبي بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله في القراءات^(١) منظومة باسم «إيضاح المعاني في القراءات الثمانية» ومنظومة ثانية في علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض في علم الفرائض» ومنظومة ثالثة في علم الأصول باسم: «مهيج الوصول إلى علم الأصول» وله في الفقه المالكي أرجوزة في نحو ١٦٩٠ بيتاً نشرت في باريس منذ القرن الماضي وكانت تدرس في جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيراً ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد في رائية^(٢) أبي الحسن بن الحصار، وهي اثنان وعشرون بيتاً في بيان المدني والمكي من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبيعياً أن تشارك الأندلس المشرق في نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما في كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسناً وضم إليها صور البيان الأساسية وهي الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبي الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسناً. وتأخذ في الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات^(٣)، وهي منظومات يتضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط في ١٤٥ بيتاً موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسناً من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطى ينظم قصيدة في علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلبي والإربلى في أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم في تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

(١) انظر في أسماء هذه المنظومات لابن عاصم
النفع ١٩/٥.
(٢) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨
وما بعدها.
(٣) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم

الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

في مائة وسبعة وعشرين بيتاً وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم
وسماها: «الحلة السَّيْرَا في مدح خير الورى» واستهلها بقوله:

بَطَيَّة أَنْزَلَ وَيَمُّ سَيِّدِ الْأُمَمِ وَأَنْزَلَ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرَ أَطِيبَ الْكَلِمِ^(١)

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعَيْنِي، ويقول في مقدمته لها إن ابن
جابر اتبع في سرد المحسنات البديعية الخطيب القزويني في كتابيه الإيضاح والتلخيص،
ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسناً.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم في علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف
واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائي الجبائي المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق،
ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا في الأندلس فحسب بل في العالم العربي
جميعه، وكان نظم الشعر التعليمي سهلاً عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق
الدقائق في النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة
صياغة بديعة، وفي مقدمتها نظمه المفصل للزخشرى في النحو باسم «المؤصل في نظم
المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» في النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله
في الصرف منظومة لامية في أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهي في مائة وأربعة
عشر بيتاً من وزن البسيط، ومنظومة ثانية في ٤٩ بيتاً من وزن الكامل ضمنها الأفعال
الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطي في الجزء الثاني من كتابه المزهر. وله في
اللغة منظومة واوية في ١٦٢ بيتاً سماها «تحفة المودود في المقصور والممدود» وهي تتضمن
الألفاظ التي تنتهي بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت في القاهرة مع
شرح موجز لها، ومنظومة ثانية في ٦٢ بيتاً من وزن البسيط سماها: «الاعتداد في الفرق
بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتباعدة التي تنتهي بها. وأهم منظوماته جميعاً الألفية
في النحو والصرف وهي أرجوزة في ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية
الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارس وإكباب الشيوخ والطلاب عليها في جميع
البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى في النحو والصرف
واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وحواشيها مثل شرح الأشموني وحاشية الصبان
عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضري عليه. ولحازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها في حديثنا عنه عما قليل، ولأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة في النحو سماها «غاية»^(١) الإغراب في علمي التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ - كأرجوزته في القراءات - بشيء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التي نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر في كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح تعلب في اللغة.

وكان قد شاع غلط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدين بعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دُرَيْد في القرن الرابع بمقصورته التي تقع في نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتي مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال وإلى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء في المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلن في عناية الشعراء بها وفي تخميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته في هذا اللون من الشعر التعليمي اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومى، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة^(٢) عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة^(٣) جعلها في ثلاثة أقسام: الأول في الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثاني في الحديث النبوى: بُنى الإسلام على خمس، والثالث في الشكوى من الزمان والإخوان وراثاء أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها في حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرئ في النفع^(٤) مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى في أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التي شاعت في قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

الخامس ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٤) راجع نفع الطيب ٣٠٦/٧.

(١) ذكرها أبو حيان في كتابه منهج السالك في

الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر

الحكم الطريفة والإفاضة في سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بعراجه إلى السماء وقرب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ في قوافي أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبي طالب عبد الجبار وحازم القرطاجني بكلمة.

أبو^(١) طالب عبد الجبار

لم تُعَنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبي طالب عبد الجبار، وحقا عُنى ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقْرَ بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة في مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعْرَف بلقب المتنبي، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا في العلوم، وأوسعهم ذُرْعَا (طاقة) بالإجادة في المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف في المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا في الفصل التالي، ويقول إنه كان قانعا بما يسد حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التي عاش فيها، غير أنه أرخ في أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وأنه يقتفيه ويهتدى به في حكمه، مما جعل العباد الأصبهاني يستنتج في ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أى بعد السنة الأولى من حكم علي، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وَهُوَ إِلَى الْآنَ إِمَامُ الْخَلْقِ وَالْمَلِكُ اللَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ

وفى قوله: «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

(١) ٢١٠/٢ وما بعدها والمغرب ٣٧١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة أبي طالب عبد الجبار الذخيرة ٩٤٤-٩١٦/١ والخريدة للعباد الأصبهاني

والأرجوزة في أربعائة وخمسين بيتاً، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصداً بها استمناعه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع في أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفاً عيون زهرها وملتقطاً مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر في فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدوها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ في حمد الله مبتدع السماء والأرض والبرية ابتداءً خالق مهيم منفرد بوحدايته منزّه عن قول جهم بن صفوان وغيره من المجسّمة، ويدعو إلى التأمل في ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضاً إلى التأمل في خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما في الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لا بد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أَفْ لِقَوْلِ الْفِئَةِ الْبَصْرِيَّةِ أَهْلُ الْهَوَى وَالْفِرْقَةِ الْغَوِيَّةِ
وَاحْذَرْ هَذَاكَ اللَّهُ يَأْذَا الْفَهْمِ قَوْلُهُمْ وَاحْذَرْ مَقَالَ جَهْمِ
وَقُلْ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ مُثْبَتِي صِفَاتِ رَبِّ الْخَلْقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشدد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشدد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذي ينقله الجم الغفير عن الجم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سني أو قل أشعري، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وَكُلُّ شَيْءٍ جَوْهَرٌ أَوْ عَرَضٌ إِلَّا الَّذِي الطَّوْعُ لَهُ مُفْتَرَضٌ
فَإِنْ فَحَصْتَ قَائِلًا مَا الْجَوْهَرُ وَمَا هُوَ الْعَرَضُ إِذْ يُفَسَّرُ
فَالْجَوْهَرُ الْحَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ بِذِي أِبْعَاضٍ
وَالْعَرَضُ الْمَحْمُولُ كَالْأَلْوَانِ وَحَرَكَاتِ الْجِرْمِ وَالْإِسْكَانِ

فكل ما في الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلاسه ملاسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة في بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهم وأن لا يهمل العقل يأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلم علمان أيا من يبحث	علم قديم ثم علم مُحدث
إن القديم علم ربّ العرش	بارى البرية الشديد البطش
ومُحدث فذاك علم الخلق	من ناطق وغير ما ذى نُطق
وكل علم محدث علمان	علم ضروري بلا برهان
وبعده فعلم الاستدلال	والمنطق الباحث عن أحوال

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاص بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضروري بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلا: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. وينعَى علي النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود في الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جلّ جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث في مقدمة رابعة عن التفكير في ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما في الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صناعا يدبره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدلّ ذلك على أن ربّا فوقه هو الكمال المطلق الذى ليس له نهاية تحدده. وفي مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتدياً بأضواء من الذكر الحكيم منشدا:

قد خلق الله السموات العلا	كما عن الرسول في الذكر تلا
أخرج من ماء دُخانا فسما	ثم دحا الأرض ليبتلو الأمما
وآدم صور من صلصال	فكان منه جملة الأنسال
ثم برا لآدم حواء	فسكننا جنّته العلياء

وهو يشير في الآيات إلى ما جاء في الذكر الحكيم من خلق السموات في مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السَّاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ (أَظْلَمَ) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَاهَا﴾ وقوله عز شأنه في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وقوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُوِّرَ من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وقوله في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنها الفردوس. ويستمر في الأرجوزة متحدثا عن عصيانها لربها وأكلهما من الشجرة وهبوطهما للأرض ويتحدث عن قتل ابنها قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلهما وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسال الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دل فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بني أمية في الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموي في تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادَ وعطَّلوا الثغورَ والجهادا
واشغلتْ أذهانهم بالخميرِ وبالأغاني وسماع الزَّمرِ
وزادهم فى الجهل والخِذلانِ أن ظاهروا عِصَابَةَ الصُّلْبَانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، ودخلوا طوائف النصارى في الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت في كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقا وببلا في موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيها وفي استصراح أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وَإِذْ أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَ الدِّينِ اسْتَصْرَحَ النَّاسُ ابْنَ تَاشَفِينَ
فَجَاءَهُمْ كَالصُّبْحِ فِي إِثْرِ غَسَقٍ مستدركا لما تبقى من رَمَقٍ
وَوَاصِلِ السَّيْرِ إِلَى الزَّلَاقَةِ وشاقه ليومها ما شاقه
لِلَّهِ دَرٌّ مِثْلُهَا مِنْ وَقْعِهِ قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وَتَلُّ لِلشَّرْكِ هُنَاكَ عَرْشُهُ لم يُغْنِ عَنْهُ قَوْمَهُ أَذْفُنُهُ

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ فلجأهم كالصبح المضى في إثر ظلام مطبق، مستدركا لما بقى في الأندلس من رمق يوشك أن يزهد ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلافة بأسد وغى والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاق في الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وتل عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة في نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم في اختيار الألفاظ والقوافي دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعاني أو تضي عليها شيئا من الإبهام. وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبي طالب في الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم^(١) القرطاجنى

مر بنا في الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفاض علماء الأندلس وأدبائها، رزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعنى بتربته فحفظ القرآن الكريم، وشب فأخذ يتلقى الآداب والعلوم في بلدته الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومد رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة في الأدب العربى مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

(١) انظر في حازم وترجمته وشعره اختصار القدح الملى ص ٢٠ وبقية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها

تلخيصه لكتابه الخطابة والشعر لأرسططاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحس أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقربه، وتوفى قفراً به منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطناً له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعاً بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظاً أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قل إن زرت أفضل مُرسلٍ قِفَانَبِكَ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميميته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئاً بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والحذف وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقاً فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة. وقد استهلها بالغزل منشداً:

لله ما قد هجَّتْ يا يَوْمَ النَّوى على فؤادى من تَبَارِيحِ الجَوَى

ويطيل في غزله إلى خمسين بيتا ناسجا في أبياته أكثر المعاني التي ألمَّ بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير في نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه في مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ به مؤيدٌ بعونه على العدا
ملكٌ حكى ملكٌ سليمانَ الذي لم يتجّه لغيره ولا ابتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنة الخلد كما يشبه قنوات المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هي نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل في وصف جنات أبي فهر والقصة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سماح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى في دولةٍ أولتُ يدي أسنى الأيادي واللها^(١)
والدَّهرُ عيدٌ والليالي عرسٌ والدَّهرُ أحلامٌ كأحلامِ الكرى^(٢)

وكأنما تهيج تونس بمباهجها في نفسه الذكرى لمرايع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك في نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدنا في نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التي نهىها النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصورا كم نعيم فيها مع خلّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورى ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله: .

نصيف من مرسية بمنزلٍ صفاً به الدَّوحُ على ماءٍ صفاً^(٣)
نقطع دُنْيَانَا بوصلِ الأُنسِ في مُغْتَبَقٍ في رَوْضِهِ ومُغْتَدَى^(٤)

(١) الأيادي: النعم، اللها: العطايا.
(٢) الكرى: النوم
(٣) نصيف: نقضى الصيف. صفا الدوح: نما
(٤) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى، مغتدى: مكان الغدو في الصباح.

وتتناجى بالمنى أنفسنا حيث تداعى الطيرُ منها وانتجى^(١)
 تقسمُ الناسُ بها قسمين من بين خلئ قلبه ومُصطبى^(٢)
 إذا اجتنى زهرَ الجمالِ وامقُ فيها اجتنى خلؤُ بها زهرَ الربى^(٣)
 وكم أغانٍ كنظيم الدُرِّ فى تلك المغانى قد وشأها من وشى^(٤)
 وكم حديثٍ كَثِيرُ الزَّهرِ فى تلك المباني قد حكاها من حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التى رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى فى أنس موصول، والناس قسمان محب وقع فى شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتنى المحبُ أزهار حبه من النظر أو من القبل يجتنى الخلى من مشاهد الطبيعة الخلابه، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. وبطيل حازم فى رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التى كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودّع تلك الجنان ارتسمت فى خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه فى فلكها، متساقين فيها كئوس الأنس فى حدائق، منتشين فيها بكؤوس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجالا عن لوحة مرسية. وبطيل فى وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخيرى ونرجس وياسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغانى الشعب: شعب بوان التى تغنى بها المتنبي، ويدعوها بالسقيا ويندب جدّها العائر وما عفا فيها وفى أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفردائس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشيب بمحوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذى ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمدح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث فى نحو مائتى بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقى فيها من المتاعب والمشاق التى احتملها فى جلد وصبر، ويفكر فى شئون الحياة وفى نفسه وخصاله وتسهيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

(١) انتجى: تناجى.
 (٢) خلئ: خال من الحب. مصطبى: محب مغرم.
 (٣) وامق: محب. خلؤ: خلئ.
 (٤) وشى: زين وزخرف.

ما أحدثتُ حادثهً لى روعةً ولا اغترانى جَزَعٌ لما اغترى
والعيشُ طَوْرًا مُشْتَهَى مُسْتَمْرًا وتارة مُسْتَوْبِلٌ وَمُجْتَوَى
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرئٍ لا فرقَ بين الشيخ فيه والفنى
قد يُدرك الحاجة مَنْ لم يَسْعَ فى طَلابها وقد تفوت مَنْ سَعَى
إن احتياطَ المرء فى أفعاله رأى يُؤديه إلى سُبُل الهُدَى

ويطيل فى الكلام عمن ضلوا نهج الرشد فكان فى ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلى من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعاً، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرهم أن جيشاً قادمًا ولم يصدقوها فكان فى ذلك حتفهم، وقصة الزباء فى حصنها وكانت أمتع من عُقاب فى أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذية ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدرس لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمرا فوثقت به ووعداها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالا فى جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهى تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولفتها أنها تمشى منقلة كأنها تحمل حديدا. ولم تنتبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروى الأسطورة العربية ليبين ما حدث فيها من تغرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وئيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وَعَرَّهَا جَدْعُ قَصِيرِ أَنْفِهِ فَأَمِنَتْهُ وَهُوَ مَرَهُوبُ الشَّدَا^(١)
وَأَوْقَرَ الْعَيْسَ رِجَالًا وَعَبَا يُؤْسًا لَهَا وَأَبُوسًا فِيمَا عَبَا^(٢)
وَارْتَابَ فِى مَشَى الْجَمَالِ لِحَظْهَا وَلَمْ تَحَقِّقْ عِنْدَمَا قَالَتْ: عَسَى^(٣)
وَمَا دَرَتْ مَا فَوْقَهَا حَتَّى غَدَتْ مُقْصَدَةً بِسَهْمٍ دَهَى مَا خَبَا^(٤)

ويتحدث عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة فى الجاهلية، وينصح بالحزم فى الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عمن شبوا

(١) الشدا: الحد، شبه قصيرا بالسيف القاطع.
(٢) أوقر العيس: حمل الإبل. عبأ: هبأ.
(٣) قالت عسى أى أنها شكت ولم تتحقق من
(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس في ثأر أبيه حُجْر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحّاف وإيقاعه بتغلب في معركة البشر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إِنَّ ثَوَاءَ الْمَرْءِ فِي أوطَانِهِ عِزٌّ وَمَا الْغُرْبَةُ إِلَّا كَالْتَوَى^(١)

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنّوا إليها حينما ملتاغا، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسد مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبيّ الهدى الذي أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وافتتح الأندلس، وبانتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للشوار، وعمّ طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسان الحال تملّى شجوها، وبكى كل ما هنالك وبكت حتى الأنهار بدمع هام وأنت الوديان وبشت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبات عقد في حجور نصارى الشمال، واحتوا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر وهيب به أن ينجذ الأندلس ويسترجعها من يرثي الإسبان منشدا:

لَوْ سَمَا خَلِيفَةُ اللَّهِ لَهَا	لَا فَتَكَّهَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَافْتَدَى
فَفِي ضَمَانِ سَعْدِهِ مِنْ فَتَحِهَا	دَيْنٌ عَلَى طَرْفِ الْعَوَالِي يُفْتَضَى ^(٢)
فَقَدْ أَشَادَتْ أَلْسُنُ الْحَالِ بِهِ	حَيٌّ عَلَى اسْتِفْتَا حِجَابِهَا حَيٌّ عَلَى
أَثَائِ الْعِدَا مَا كَانَ مَرُوبًا بِهَا	وَهُوَ الَّذِي يُرْجَى بِهِ رَأْبُ الثَّأَى ^(٣)
مَا زَالَ يُعْلَى الْمَلَوَانِ نَصْرُهُ	وَسَيْفُهُ يَخْطُ مَا يُعْلَى الْمَلَا ^(٤)

ويمضي في استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم منير، وهتف بهتاف

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

الصدع والفتق.

(٢) العوالي: الرماح.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق

(٣) أثنأى العدا: أكثر من القتل فيهم

والجراحات.. مرعوبا: ملثما. رأب الثأى: إصلاح

المسلمين في كل أذان: «حيّ على» استفتاحها أى أقدم أقدم ويا خيل الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتئماً بها، وهو الذى يُرجى به لأُم ما انفتق، وإنه لمعود النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يلبسها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلًا:

لا تَلَهُ فى وجودك الأولِ عن وجودك الثانى ونَهْنَهُ مَنْ لَهَا^(١)

ويقول إن للنفس وجهين: وجهها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجهها يشدّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاعتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله فى فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصودته وما بذل فيها من جهد فى تخير الألفاظ والمعانى، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تخلب القارئ بروعتها البيانية.

(١) نهْنَهُ : ازجر.